نحو منهجية قرآنية للتفكير والرد على الشبهات

دكتور

حسام الدين طاهر عبد المنعم

دكتوراه في الآداب - جامعة الإسكندرية





مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه

وبعد

فإن المتأمل لواقع المسلمين اليوم يجد الهجمة على القرآن الكريم لا تزال تزداد يومًا بعد يوم، بما يثيره المرجفون من شبهات وما يبثونه من سموم في وسائل الإعلام المختلفة، وهو الأمر الذي ترك أسوأ الأثر على كثير من شباب المسلمين الأغرار الذين جُرِّدوا من وسائل التحصين الفكري ضد هذه الهجمات المسمومة، ولم ينالوا حظا من الاطلاع على ردود أهل العلم على تلك الشبهات.

وإن من أهم المعينات على مواجهة الشبهات وعدم الاغترار بها هو بناء العقلية المنهجية المنضبطة بضوابط التفكير السليم والحجة البالغة، فهي حائط الصد الأول الذي يحول دون تسلل هذه الشبهات إلى إثارة الشك في قلوب المؤمنين وافتتانهم بها، فإن كثيرا من الشبهات إنما تقوم على المغالطات العقلية وتزيين الباطل ومحاولة إظهاره بمظهر الحق، وذلك لا يحصل إلا لمن ضعفت آلة النظر عنده فالتبست عليه الحقائق والأباطيل ووقف منها موقف الشك والحيرة.

وإذا كانت الشبهات المثارة ضد الإسلام وكتابه الكريم أصبحت تمثل جزءًا أصيلا من اهتمام المسلمين المعاصر، فإن من الواجب عليهم أن يتتبعوا هذه الشبهات ويفندوها بأساليب المنطق ومسلمات العقل، وأن يتابعوا ما يستحدثه أصحابها من ثغرات الشك ووساوس الشيطان.

ومن ثم فالتحصن بالمنهج العقلي السليم، وتعقب الشبهات بالرد والتمحيص هما مسلكان لا غنى للمسلم عنهما، وهما من ضرورات هذا العصر الذي انفتحت فيه أبواب الفتن والشبهات على مصاريعها، وتطايرت فيه أباطيل المرجفين عبر الفضائيات ووسائل الإعلام، تحاول التشكيك في عقائد الأمة وثوابتها، وتشويه حقائق الدين وطمس معالمه.

وهذا الكتاب خطوة على طريق تعزيز هذين المسلكين وتوطيد أركانهما، فإنه يتوزع على قسمين، يتناول القسم الأول منهما معالم منهج التفكير المنضبط من خلال تأمل آيات القرآن الكريم وتدبر معانيها، بغية الوصول إلى عُدة معرفية تقي المسلم من الانزلاق إلى مهاوي الشبهة أو الاغترار بما فيها من المغالطات، ويتناول القسم الثاني منهما تطبيقا عمليا على مواجهة الشبهات وملاحقة ما يستحدثه المشككون منها، وذلك من خلال استعراض عدد من الشبهات المثارة على سورة الفاتحة (أم الكتاب)، ومحاولة الرد عليها وفق نظر عقلي وتعقب منطقي.

وقد أفدت كثيرا في قسمي الكتاب من الدراسات والجهود الكثيرة التي تحتوي عليها المكتبة الإسلامية في هذين المسلكين، ولا أزعم أني قدمت فيهما جديدا يستحق أن ينسب إلي، اللهم إلا في محاولات اجتهادية يسيرة في الرد على بعض الشبهات المعاصرة حول فاتحة الكتاب.

وهذه دعوة إلى عموم المسلمين أن يولوا هذين الجانبين عنايتهم وأن يبلغوا منهما غايتهم، وألا يقتصروا على جانب الرد عن الشبهات دون تنمية الوعي بضوابط التفكير ومناهج البحث، وذلك أن الرد عن الشبهات هو بمثابة المرابطة على الثغور وصد الهجمات عنها، وتوطيد ضوابط التفكير ومناهج البحث هو بمثابة تعزيز القوة الداخلية وتحصينها.

والله من وراء القصد.

القسم الأول

ضوابط التفكير في القرآن الكريم

(منارات للتفكير من لدن حكيم خبير)

مدخل

أنزل الله القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد، وضمنه أصول ما تستقيم به حياة العباد، ولا شك أن من أهم ما يضيء الطريق أمام الإنسان في حياته ويأخذ بيده إلى سبيل النجاة هو العقل السليم الذي يعصمه من الوقوع في الخطأ ويحول بينه وبين الانزلاق إلى مهاوي الخطيئة والضلال، وقد عول القرآن كثيرا على (العقل) بما هو الآلة التي تعين الإنسان على إنتاج المعرفة الصحيحة وتكسبه القدرة على تحليل الآراء والمواقف التي تعرض له في حياته والحكم عليها بميزان القسط، فها هي الآيات الكريمة تتوالى على نظر القارئ للقرآن الكريم حينا بعد حين، تذكره بالخصيصة التي ميزه الله بها عن سائر المخلوقات الأرضية، ورفعه به إلى رتبة الفضل والتكريم.

قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٢]

وقال ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨]

وقال ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]

وقال ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]

وقال ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]

وقال ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩]

وقال ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠]

وقال ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ . وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٦-٨]

وقال ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ [عبس: ٢٤]

وقال ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥]

وقال ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

وقد نعى الله تعالى على أقوام لا يعملون عقولهم ولا ينظرون فيما تقع عليه أعينهم وتستقبله مداركهم نظر تفكر واعتبار ، وقد تكرر السؤال الإنكاري (أفلا تعقلون) في آيات القرآن الكريم بضع عشرة مرة، باعثًا في نفوس المخاطبين به حمية النظر والتفكر وإعمال العقل، وبرغم ذلك فقد أبى المستكبرون إلا أن يصروا على جهلهم فبلغ القرآن غاية الذم والتقريع لهم في قوله تعالى ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، وذلك لأن البهائم -كما بين أهل التفسير- تنقاد إلى ما ينفعها وتهتدي إلى مراعيها بما ركب الله فيها من الغريزة التي تصلح حياتها وتجعلها مستقيمة منتجة، أما المعرضون عن إعمال عقولهم فيما أنزل الله إليهم من البينات فقد أهملوا مناط التكريم الذي خصهم الله به، فصارت حياتهم عبثا بلا طائل، يشبهون الحيوانات في اقتصارهم على طلب المأكل والمشرب، وينزلون عنهم دركات في تركهم

التعقل والنظر وإعراضهم عن داعي الله فيهم.

والمتدبر آيات القرآن الكريم يجد أنه لم يقتصر على حث الناس إلى إعمال العقل وإلى تدقيق النظر والتفكر في آيات الله، ولم يكتف بتقريع من تغافل عن ذلك الأمر وارتضى لنفسه أن ينحط عن رتبة الأنعام، بل زادهم بيانًا وتبيينًا لطريق التعقل والنظر وكشف لهم عن المزالق التي تحف بسيرهم على هذا الطريق وتبعدهم عن بلوغ الغاية المرجوة منه، وهي الوصول إلى الحق على بينة وبرهان.

إن القرآن الكريم حينما دعا الناس إلى العقل والنظر والتدبر علمهم كيف يفكرون بعقولهم وكيف يعرضون القضايا والأفكار عليها، وكيف ينجون من عثرات الفكر وأخطاء النظر حتى يكون حكمهم مجردًا عن الشوائب التي تؤثر على صحة الرأي وسلامة المعتقد؛ فكما يعرض لإدراك الإنسان الحسي بعض المعوقات أو المؤثرات التي تحدث خللا في إدراكه للأشياء وخطأ في تصوره لها، فكذلك قد يعرض للعقل ما يؤثر على سلامة منظومة التفكير فيه، فيحكم على القضايا التي تعرض عليه حكمًا مشوبًا بالخطأ، فيكون كما ترى العين القاصرة من بعيد شبحًا ما فتحسبه إنسانًا ثم يتبين بعد ذلك أنه ليس كذلك، وإذا كانت أخطاء الحس يمكن أن تتضح بسهولة متى غاب العائق الذي يحول بين الحس وبين الإدراك الصحيح، فإن أخطاء الفكر ليست من السهولة بحيث يتعرف الإنسان عليها في فكره وتعقله، لا سيما إذا صحبها بعض العوامل الأخرى التي تتصل بالنفس وما يعج به عالمها من الأهواء والميول.

وعلى هذا النحو يضع القرآن الكريم لنا منهجًا للتفكير، يعرض لنا فيه للوسائل والطرق التي تعين عقولنا على إنتاج المعرفة الصحيحة وعلى الوصول إلى الحقائق المدعومة بالأدلة والبراهين، كما يلفت أنظارنا من خلال هذا المنهج إلى ضرورة التنبه إلى ما يؤثر على سلامة

أفكارنا وصحة معتقداتنا، مصداق ذلك في الآيات الكريمة التي تذكر الإنسان بنعمة الله عليه إذ منّ عليه بالهداية العامة التي هي خلق الاستعداد النفسي والعقلي لمعرفة الحق وتمييزه عن الباطل، كما نلمح من قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ. وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ. وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٨-١٠]، وقوله تعالى ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا. إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢-٣]. وما أحوجنا في زمن الشبهات والافتراءات والجدل إلى تدبر القرآن الكريم والوقوف على بعض معالم هذا المنهج السامي الذي يأخذ بأيدينا إلى الحقيقة المجردة عن الأهواء وزخارف الباطل، حتى يكون القرآن نفسه عونًا لنا في الدفاع عنه ضد الهجمات المتوالية التي لا تتوانى عن محاولة النيل منه وصرف المسلمين عنه.

أولا: أصول عقلية

١

توثيق المصدر وطلب الدليل

من القواعد العقلية الكبرى التي تقوم عليها حركة الفكر الإسلامي قاعدة مهمة تكتب بماء الذهب، ويعض عليها بالنواجذ كل من يحترم إنسانيته ويحترم عقله، ألا وهي: **(إن كنت ناقلا فالصحة، وإن كنت مدعياً فالدليل)**، وبمقتضى هذه القاعدة الذهبية فإنه يتعين على الإنسان أن يراعي صحة المصدر الذي ينقل عنه فيما يروي من الأقوال أو المعلومات، وأن يقدم الدليل الذي يستند عليه فيما يدعيه من القضايا أو الفرضيات، وعلى هذا النحو سار علماء المسلمين في مختلف مجالات البحث العلمي.

فعلى الجانب الأول (جانب النقل) نهض علم الجرح والتعديل بعبء نقد الأخبار وتفحصها من حيث الصحة والضعف والحكم على الرجال الذين ينقل عنهم الأخبار، ولم يقتصر هذا العلم على جانب المرويات الدينية أو الأحاديث النبوية الشريفة كما قد يتبادر إلى الأذهان، بل استلهمه أهل التأريخ واللغة والأدب فيما يروون من النصوص والأخبار، وقد كان علم الجرح والتعديل نواة صالحة أثمرت فيما بعد ما يعرف الآن بالمنهج التاريخي.

وعلى الجانب الآخر (جانب العقل) استثمر المسلمون المنطق اليوناني وأدخلوه إلى حوزة العلوم الإسلامية وصبغوه بالطابع الإسلامي المميز، فصار علم المنطق أحد علوم الآلات التي لا يستغني عنها طلاب العلوم الشرعية، بما يتضمن من مباحث التعريفات

والقضايا وطرق الاستدلال عليها والمغالطات التي تؤثر على سلامة الأدلة ، وفضلا عن المنطق فقد تكامل لدى علماء المسلمين صرح علمي آخر لم ينل حظه إلى الآن من العناية والنظر، وهو علم آداب البحث والمناظرة، الذي يقوم على معرفة طرق البحث والمناقشة مع الخصوم، ويضع الضوابط التي تكفل للمتناظرين أن يصلوا إلى الحق في مناظراتهم وجدالهم، وتحول دون تشويه الحقائق وغلبة الشبهات عليها وإظهار الباطل في صورة الحق.

على ذلك درج المسلمون وانطلقت مسيرتهم الفكرية عبر قرون طويلة من البحث والنظر، وكان القرآن الكريم هو المؤسس الأول لهذه المسيرة المباركة، بما وضع أمام أعين المسلمين من منارات التفكير وضوابط العقل، فقد استمدوا هذه القاعدة الذهبية التي ميزت الفكر الإسلامي من آيات القرآن الكريم، وبنوها على ما فهموه من معانيه وما تدبروه من إشاراته، وهذا ما نحاول أن نجليه في السطور الآتية.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث الوليد بن عقبة ليجمع الصدقات من الحارث بن ضرار الخزاعي، فلما بلغ الوليد بعض الطريق خشي على نفسه أن يقتله الخزاعيون فعاد إلى رسول الله صلى الله وسلم وقال له "إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي"، فبعث رسول الله من يتثبت من صحة هذا الخبر فلما ذهب هؤلاء الذين بعثهم النبي لقوا الحارث في طريقه إلى النبي، فقالوا: " هذا الحارث " فلما غشيهم قال لهم: " إلى من بعثتم ؟ قالوا: إليك، قال: ولِمَ ؟ قالوا: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنَّك منعته الزكاة وأردت قتله، قال: لا والذي بعث محمداً بالحق، ما رأيته بَتَّةً ولا أتاني "، فلما دخل الحارث على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " منعت الزكاة وأردت قتل رسولي؟ " قال: " لا والذي بعثك بالحق ما رأيته بتةً ولا أتاني، وما أقبلتُ إلا حين احتبس علي رسولك، خشيت أن تكون كانت سخطةٌ من الله تعالى

ورسوله علي". فنزلت هذه الآية:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾

وهذه الآية هي الأصل الذي قامت عليه القاعدة المذكورة (إن كنت ناقلا فالصحة)، فهذا الرجل الذي ألقى بخبر امتناع الحارث عن أداء الزكاة نقل خبرًا كاذبًا، كاد أن يحدث فتنة عظيمة في صفوف المسلمين بما كان يترتب على خبره الكاذب من الحكم على قوم بالعصيان والامتناع عن أداء الزكاة، ولولا تثبت الرسول صلى الله عليه وسلم من صحة هذا الخبر لوقع ما لا يحمد عقباه.

وقد أرشدت الآية المسلمين إلى ضرورة التثبت من صحة الأخبار التي تنقل إليهم، والقراءة في الآية على وجهين، أحدهما (فتبينوا) أي فتبينوا النبأ ، والآخر (فتثبتوا)، وفي المعنيين ما يشير إلى خطورة التسليم بالأخبار بمجرد ورودها، إذ لم تكتف الآية بالأمر بالتأكد من صحة الخبر أو من صدق المخبر، بل أمرت بالتبين في قراءة وبالتثبت في قراءة أخرى، والأمر بالتبين يدل على الوصول إلى حقيقة الخبر والكشف عن جميع أبعاده وملابساته، فالبيان هو الظهور والانكشاف، والأمر بالتثبت يدل على التأني والتوقف عن الاستجابة لهذا الخبر حتى يتحقق صدقه، فإذا وقع التبين وحصل التثبت يكون رد الفعل مبنيا على حقيقة صادقة لا على كذب أو وهم.

وعلى هذا النحو ينبغي أن يتلقى المسلم مختلف الأخبار التي تتوارد على سمعه، فيتبين صدقها ويتثبت إزاءها قبل أن يقدم على أمر يندم عليه فيما بعد.

* * *

أما عن الدعاوى والقضايا العقلية التي لا تقوم على النقل أو الإخبار فإن موقف المسلم منها يتأسس على أصل راسخ ومبدأ واضح، ترجم عنه أهل العلم بقولهم (إن كنت مدعياً فالدليل)، واستلهموه من آيات القرآن الكريم التي تحث على طلب الدليل والبرهان وعدم إرسال الأقوال والدعاوى غفلا دون استدلال وبينة، ومنهج القرآن في ذلك واضح غاية الوضوح.

فإن الله تعالى في معرض محاجة المشركين وإظهار تهافت عقيدتهم الفاسدة كثيرًا ما يطالبهم بالدليل والبرهان على صحة ما يعتنقون من الشرك، وأنى لهم أن يأتوا ببينة تصحح ما أجمعت العقول السليمة على بطلانه واستحالته وهو تعدد الآلهة والإشراك في العبادة، فمطالبة القرآن الكريم لهم بالدليل على ذلك فيه تعجيز وتحدٍ لهم ليرتدعوا عن باطلهم، وفيه أيضًا إشارة إلى كل ذي عقل يحترم عقله ويعمل فكره ألا يعتقد رأيًا أو يؤمن بشيء ما لم يكن مبنيًا على دليل وقائمًا على بينة وبرهان.

قال تعالى ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤]

وقال ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]

وقال ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤]

وقال ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [القصص: ٧٥]

وقال ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠]

وقال ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤]

ولما كان الأمر على هذا النحو كان من الضروري أن يؤيد الله رسله بالأدلة والبراهين التي تثبت صحة دعواهم وصدق مقالهم، وهذا ما تشير إليه كثير من الآيات الكريمة على نحو ما نقرأ في قوله تعالى ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ﴾ [البقرة: ٢١١] ، وقوله ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى﴾ [الأنعام: ١٥٧] ، وقوله على لسان بعض رسله ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٠٥]﴾ [الأعراف: ٧٣] ، وقوله ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

ومن ذلك يتضح للمسلم ضرورة طلب الدليل على صحة الدعاوى والقضايا التي يدعيها أو التي تُعرض عليه، وألا يكون التسليم بأي قضية أو رأي إلا بسلطان من الدليل مبين.

٢

الاستنباط والاستقراء والقياس

يمكننا أن نصنف المناهج التي ينتهجها العقل لتكوين القناعات واختبار صحة الفرضيات وإنتاج الأفكار إلى ثلاثة أنماط رئيسية

الأول: يقوم على الانتقال من حكم كلي إلى حكم جزئي، وهو ما يعرف بالاستنباط

الثاني: يقوم على الانتقال من أحكام جزئية إلى حكم كلي، وهو ما يعرف بالاستقراء

الثالث: يقوم على الانتقال من حكم جزئي إلى حكم جزئي، وهو ما يعرف بالتمثيل أو القياس.

ولكل نمط من هذه الأنماط حضور في القرآن الكريم، فقد انتهج القرآن في دعوته مختلف المناهج العقلية التي تنتج المعرفة الصحيحة وتعين العقل على تصور القضايا والحكم عليها.

فأما الاستنباط فنلمحه في إشارات الآيات الكريمة إلى الاستدلال بخلق السموات والأرض على قدرة الله تعالى على إحياء البشر وإعادة خلقهم بعد موتهم، وهو ما كان ينكره مشركو العرب ويعتقدون استحالة وقوعه، فنبههم الله تعالى بالحكم الكلي الذي لا ينكرونه على بطلان معتقدهم وعلى إثبات الحكم الجزئي وهو بعث البشر الذي هو أحد مصاديق الحكم الكلي وهو عموم الخلق الإلهي وشموله لكل ما في السموات والأرض.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا

لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا. أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٩٨-٩٩]

وقال في سورة يس تعقيبا على إنكار الكافرين للبعث ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، والضمير في قوله تعالى (مثلهم) عائد على البشر، أي على هؤلاء المعاندين المنكرين للبعث، وهم فرد جزئي من أفراد الخلق الكلي الشامل لجميع ما في السموات والأرض، وإذا ثبت الحكم لجميع هذه المخلوقات العظيمة فهو ينسحب على المنكرين بوصفهم جزءًا من هذا الخلق الكبير، وكيف لا والمؤنة في شأنهم لا تبلغ ما في السموات والأرض من عظيم المخلوقات التي لا يبلغها الحصر.

وقد نبه الله تعالى في موضع آخر على هذا المعنى فقال ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]. وفي إطار محاجة الكافرين في أمر البعث أيضا ينتهج القرآن نهج الاستنباط من الحكم الكلي، فيقرر شمول البعث لجميع البشر من لدن آدم إلى قيام الساعة، ليشمل هذا الحكم بجملته هؤلاء المنكرين الذين لا يجاوزون أن يكونوا أفرادًا معدودين من جملة الخلق الكبير، قال تعالى ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ. أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ. قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ. لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٧-٥٠].

* * *

وأما الاستقراء فقد أشار إليه القرآن الكريم في إطار إنذاره المشركين عاقبة إصرارهم واستكبارهم عن الإذعان لدعوة الحق، وقد كان أهل مكة أصحاب تجارة وقوافل وكانوا

يسيحون في الأرض فيمرون على مساكن الأمم السابقة الذين سبقت دعوة الله إليهم فأعرضوا عنها، وقد لحق بهم من العذاب ما تنطق به آثارهم الباقية والتي يشهدها أهل مكة في سيرهم إلى تجارتهم، فدعاهم القرآن الكريم إلى استقراء أحوال هذه الأمم، وتتبع عاقبتهم وما انتهت إليه كل أمة من الهلاك والخسران، فالقضية الكلية التي ينذرهم القرآن إياها هي لحوق العذاب بهم ونزول الهلاك بساحتهم، وأدلته الجزئية مستقرأة من مصائر الأمم السابقة التي يشهدها القوم ويمرون عليها مصبحين وبالليل.

قال تعالى(﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢]، وقال ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]

وفي معرض التحدي بصدق القرآن وكونه الأحق بالاتباع والإيمان يقول تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ. قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القصص: ٤٨-٤٩]، ونلمح في هذا الخطاب الإلهي إشارة إلى استقراء الكتب والعقائد والأديان التي يعرفها الناس ويتبعونها، والنظر فيها والتفتيش عن أمرها، بغية الوصول إلى كتاب يفوق هدي القرآن وما بين يديه من الكتب السماوية، ولاشك أن البحث في هذه الجزئيات الكثيرة لن يصل إلا إلى النتيجة التي يتحداهم القرآن بها، وهي أنه أهدى الكتب وسبيله أقوم السبل، ولذلك عقب الله تعالى على هذه الآيات بقوله ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

ويقرب من ذلك تحدي القرآن بالإتيان بمثله ومعاجزة العرب بفصحائهم ومصاقعهم

أن يأتوا بما يدانيه في الفصاحة والبيان ولو على وجه الافتراء، كما قال تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣-١٤] فبدلالة عجز الأفراد الكثيرين من أهل البلاغة والبيان عن محاكاة القرآن الكريم في نظمه -وهو العجز الذي حصل بالفعل في زمن نزول القرآن وما بعده من الأزمان- يصل العقل إلى الحكم الكلي بتفرده في طبقة البلاغة المعجزة وصدق نسبته إلى رب العالمين.

* * *

وأما القياس فيعد من أهم مناهج البحث ، وقد عده جمهور الأصوليين المصدر الرابع من مصادر التشريع بعد القرآن والسنة والإجماع، فهو من أهم طرق الاستدلال العقلي وأكثرها ذيوعًا، ويسميه المناطقة بالتمثيل، ونلحظ في هذه التسمية إشارة إلى ما يقوم عليه القياس من تتبع للأشباه والأمثال بين القضايا الجزئية التي يربط بينها العقل في عملية القياس أو التمثيل.

وفي القرآن الكريم عدد وافر من الآيات التي اعتمدت على منهج التمثيل أو القياس في عرض القضايا الإيمانية والاستدلال عليها، وقد وظف القرآن هذا المنهج في مناقشة أصول العقيدة التي جاء يقررها ويحاجج المشركين بها، فعرض في العهد المكي لقضية التوحيد وضرب الأمثال الباهرة التي تبين حقيقة الأصنام التي يدعونها آلهة من دون الله، كما عرض لقضية البعث وإنكاره، وأثبت من خلال التمثيل إمكانية وقوعه وتحققه، ثم انتقل القرآن في العهد المدني إلى محاجة أهل الكتاب وإثبات تهافت مذهبهم الباطل في المسيح بن مريم بزعمهم أنه ابن الإله.

ففي إطار تأصيل القرآن لعقيدة التوحيد توالت الأمثال القرآنية التي تظهر حقيقة الأصنام وتهدم تصورات المشركين الباطلة عنها، فجاء قوله تعالى ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥] وقد ضربت الآية المثل للأصنام بالعبد المملوك الذي لا يملك من أمر نفسه شيئا ولا يقدر على فعل أي شيء بإرادته، ومن كان هذا وصفه لا يسوي العقل السليم بينه وبين الحر الكريم الغني الذي يكثر من الإنفاق سرًا وجهرًا، فكيف يسوي المشركون بين الأصنام العاجزة فاقدة الإرادة والقدرة وبين الله القادر الغني؟

وفي قوله تعالى ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨] ضرب الله مثل المشرك والمؤمن ليثير في العقول السليمة بؤس حال المشرك الذي يمثل حاله بعبد يتنازعه شركاء كثيرون كلُ منهم يدعيه لنفسه وينسبه لملكه، وهو متحير بينهم، لا يدري إلى من يوجه طاعته وإلى من يكون ولاؤه، وفي مقابل ذلك حال المؤمن الذي يمثل بعبد مملوك لسيد واحد، فهو يطيعه ويخلص له، والمقصود بيان ما يعانيه المشرك من ضلال وتحير، وما ينعم به المؤمن من سكون وطمأنينه، وقد عبر القرآن عن هذا المعني بهذه الصورة التمثيلية ليقربه إلى الأذهان ويزيل غشاوة الشرك عن أعين الناس.

ومن القياس التمثيلي في القرآن الكريم نقرأ قوله تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١]، والآية من القرآن المكي، وهي مسوقة لإظهار الضعف الشديد والوهن

الظاهر الذي يعول عليه المشركون في اعتمادهم على الأصنام وفي اتخاذهم لها آلهة من دون الله، فإنها في حقيقة الأمر لا تعدو أن تكون كالعكنبوت التي يضرب المثل بخيوطها في غاية الضعف والوهن، وقد عمدت الآية إلى التمثيل لتحمل العقول السليمة على تصور هذا المعنى وإدراكه وإظهاره في صورة حسية.

وعلى هذا النحو يقرب القرآن الحقائق إلى الأذهان، ويقارن بين الأشياء في قياساته ليهدم التصورات المغلوطة ويبرز الحقائق الناصعة، فجاءت آياته المعجزة لتلفت الأنظار إلى إمكانية وقوع البعث والإحياء بعد الموت وترد على دعاوى المشركين باستحالة ذلك، وتقدم لهم الأقيسة والأمثال الحسية التي لا يسعهم إنكارها لتثبت لهم أن وعد الله حق، فمما تراه أعينهم من مظاهر الحياة من حولهم يختار القرآن عنصر الماء وما فيه من سر الحياة، حيث تكون الأرض جرداء هامدة لا مظهر للحياة فيها، فينزل عليها الغيث فما تلبث أن تخضر وتزهر وتبعث فيها الحياة من جديد، وفي هذه الصورة المتكررة أمام أعينهم قياس ظاهر على إثبات البعث والإحياء، قال تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، وقال ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ. وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ. رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ٩-١١].

ويقيس الله تعالى قضية الخلق الآخر على الخلق الأول بما استقر في العقول من أن تكرار الفعل لا يستحيل على من بدأه، ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ

خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وفي المدينة المنورة وجه القرآن الكريم قدرًا كبيرًا من خطابه إلى أهل الكتاب، وكان من أهم القضايا التي عالجها قضية المسيح بن مريم وموقف النصارى منه إذ زعموا أنه ابن الله، وكان الباعث لهم على هذا الزعم الباطل هو الغرابة الفائقة التي أحاطت بمولده، لكونه ولد من أم بغير أب، فجاء البيان القرآني ليبطل هذا الزعم بقياس ظاهر بديع ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

٣

مسلمات عقلية

وفي سياق الجدل القرآني مع أصناف المخاطبين به اعتمد القرآن الكريم على بعض المسلمات العقلية التي تقطع شبهة الخصم وتبطل حجته، وذلك لكونها محل اتفاق وإجماع ذوي الألباب من المؤمنين وغيرهم، ومن شأن الحجة إذا كانت قائمة على قضية مسلمة أن تفضي إلى نتيجة لا تقل عنها إذعانا وقبولا، ومن أهم المسلمات العقلية التي اعتمد عليها القرآن الكريم : مبدأ السببية.

وهو أحد المبادئ العقلية التي تنظم حركة الفكر الإنساني، ويقضي هذا المبدأ بأن لكل معلول علة، أو لكل حادث محدثًا، أو لكل نتيجة سببًا، أو لكل أثر مؤثرًا، ومن ثم فإن هذا الكون الموجود لابد أن يكون له موجد، هو الذي أخرجه من العدم وحوله من حالة المعدوم إلى حالة الموجود، وقد استثمر القرآن الكريم هذا المبدأ في حواره مع المشركين وأثبت من خلاله وجود الله تعالى وخالقيته للكون.

قال تعالى ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦]، والجواب عن هذه الأسئلة مسكت لافتراءات الملحدين والمشككين في وجود الله، فمن المحال العقلي أن يتحول العدم إلى الوجود دون أن يكون وراء ذلك التحول قوة واعية ذات إرادة وتصرف، ولما كان من العلم الضروري في الإنسان أنه وجد بعد أن لم يكن فلا مناص له عن الاعتراف بضرورة وجود هذه القوة التي أوجدته وأبدعت خلقه على هذا النحو العجيب المنتظم، حيث تعمل جميع أجزاء جسمه وفق نظام دقيق وقوانين مطردة، ومن المحال العقلي أن يكون الإنسان هو الذي

أوجد نفسه، وإذا ركب أحد المعاندين متن الغرور فادعى أنه خلق نفسه، فهل يسعه أن يدعي خلق السموات والأرض؟ ومن ثم ارتقى القرآن في حجته وألزم الخصم وأسكته، فكما أن من المحال أن يكون الإنسان خالقًا لنفسه، فإن من المحال بالضرورة أن يكون هو الذي أوجد السموات والأرض وخلقهما على هذه القوانين المنتظمة والسنن الثابتة، فمن ادعى شيئا من ذلك فهو بلا ريب إما مجنون فاقد العقل والتمييز، وإما مسرف في الكبر والغرور.

وقد نطقت الفطرة الإنسانية السليمة على لسان العربي القديم بهذا المبدأ العقلي الثابت، فقد سئل بِمَ عرفتَ ربك؟ فقال: "البَعرةُ تدل على البعير، والأثَر يدل على المسير، ليل داجٍ، ونهار ساجٍ، وسماء ذات أبراج، أفلا تدل على الصانع الخبير؟!

* * *

ومن المبادئ العقلية التي اعتمد عليها القرآن في جدله مع الخصوم، مبدأ استحالة اجتماع النقيضين وارتفاعهما، فالشيء لا يمكن أن يتصف بصفة ونقيضها في الوقت نفسه، كما لا يمكن أن يخلو من أحد الصفتين من نفس الجهة، فالإنسان مثلا إما أن يكون موجودًا أو معدومًا، ولا يجوز أن يكون موجودًا ومعدومًا في الوقت نفسه، كما لا يمكن أن غير موجود وغير معدوم في الوقت نفسه.

ويمكن أن نلمح هذا المبدأ العقلي في قوله تعالى ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢] والقرآن الكريم يضع في هذه الآية منارة هادية للمؤمنين لتحصل لهم الثقة الكاملة فيما هم عليه من صحيح الاعتقاد، المبني على النظر والاجتهاد لا على التعصب واتباع الآباء والأجداد، ويوظف المبدأ العقلي الذي نحن

بصدده أحسن توظيف، إذ يستثمره في مقام الجدل مع الخصوم المخالفين لدعوة القرآن، ويضعهم في مقارنة لا تحتمل إلا اختيارًا واحدًا، وذلك بعد أن بين لهم بالأدلة البينة أن الله تعالى هو الإله الحق، المنفرد باستحقاق العبادة والطاعة، فهو تعالى الذي يرزقهم من السماء والأرض، وهو الذي يملك السمع والأبصار، وهو الذي يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، وهو الذي يدبر الأمر، ، وكل ذلك باعترافهم وإقرارهم، كما تسجل الآية الكريمة ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

ثم تأتي المقارنة الحاسمة (فماذا بعد الحق إلا الضلال) لتثبت إيمان المؤمنين وتزعزع شرك الكافرين، بل تتركه هشيمًا تذروه الرياح، فمن أقر بهذه الأدلة البينة واعترف بانفراد الله تعالى بكل هذه الأمور التي فيها قوام حياة الإنسان، فإنه يتعين عليه أن يذعن لصوت العقل ويستجيب لنداء الإيمان باتباع القرآن، وهنا يتميز أهل الإيمان بثباتهم على الحق، ويبقى المصرون على الضلال أسرى للتقليد والأهواء، تعصف بهم رياح الحيرة ويتقلبون على نيران البهتان والضلال.

وفي موضع آخر يشير القرآن الكريم إلى هذا المبدأ العقلي، ويتنزل في جداله مع الخصوم فيرخي لهم العنان ليلزمهم الحجة عقب سرد الأدلة عليهم، فيقول تعالى ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، فهذه الاحتمالية التي تفترضها الآية هي من قبيل التنزل في المناظرة مع الخصم، وهي تقوم على مبدأ عقلي مسلم به لدى أطراف الخصومة، لكونه يمثل بدهية عقلية لا تتنازع الأفهام في تصديقها.

ثانيًا ضوابط واحترازات

ولم يكتف القرآن الكريم بوضع المنارات الهادية للتفكير العقلي بالإشارة إلى المناهج التي ينتهجها العقل في عملية التفكير وفي طرق الاستدلال، بل أشار في أثناء ذلك إلى عدد من الضوابط والاحترازات التي يجب أن يتنبه إليها العقل وأن يكون على وعي بها حتى لا يؤديه فكره إلى نتائج خاطئة وحتى لا يقع فريسة للمغالطات الفكرية والخدع العقلية.

١

اتباع الظن

فمن ذلك: ما حذر منه القرآن من اتباع الظن، وقد سبقت الإشارة إلى دعوة القرآن لتوثيق الأخبار والتحقق من صحتها، وذلك للوصول إلى اليقين الذي يصح أن تبنى عليه القناعات وتؤسس عليه المواقف، وهذا هو لب فكرة التحذير من الظن والنهي عن اتباعه، وهي فكرة شاملة لمختلف القضايا والتصورات التي تعرض على العقل، سواء أكانت أخبارًا منقولة أم قضايا مدعاة، ففي جميع الأحوال لا يصح أن يقر العقل بخبر أو قضية ما لم تكن مبنية على اليقين الذي يستفرغ الإنسان وسعه في طلبه والوصول إليه.أما أن يكتفي الإنسان بمجرد الظن ، ويتخذ منه منطلقًا لبناء عقائده وأفكاره، فهذا خطأ فكري فاحش، يتنزه عنه أصحاب العقول السليمة والأفهام القويمة، وقد تعددت الآيات الكريمة التي تحذر من الظن وتنهى عن اتباعه، فقد نهى الله تعالى المؤمنين عن كثير من الظن، لما كان بعضه إثما، فلأجل البعض حرم الكل، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢].

وفي معرض ذم المشركين وتقريعهم على موقفهم المعرض عن دعوة القرآن يأتي الحديث عن الظن، لكونه القاعدة التي بنوا عليها عقائدهم الباطلة والمغالطة التي زينت لهم الإشراك بالله الواحد والافتراء عليه كذبًا، قال تعالى ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣] وقال عقب هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٧-٢٨]. وقال في موضع آخر ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦]. وقال في موضع ثالث ﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وعلى شاكلة المشركين يظهر أهل الكتاب باتباعهم الظنون الكاذبة واعتمادهم عليها في عقائدهم الباطلة، فيذم القرآن موقفهم ويشهر بهم في قوله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]. وهكذا ينعى القرآن على أصحاب العقائد الفاسدة اتباعهم الظن الكاذب والتخرصات الباطلة بغير يقين.

٢

اتباع الهوى

ومن ذلك ما حذر منه القرآن من اتباع الهوى، وهو ميل النفس ورغبتها الدفينة إلى اتباع رأي أو الاعتقاد بقضية، ولا يكون ذلك عن دليل هو أحق بالاتباع، بل يكون لأغراض خفية، بتحقيق مصلحة شخصية، أو الانتصار لقريب أو صديق، أو التخفف من عبء تكليف شاق، أو ما إلى ذلك من الأغراض.

وقد دعا القرآن الكريم إلى الإنصاف وعدم المحاباة على حساب الحق، مهما كانت الدواعي التي تدعو إلى ذلك، فقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]، ولوا كان هناك من داعٍ يدعو الإنسان إلى ترك الحيادية والإنصاف فلن يكون ثم أولى من نفسه أو من ذوي قرباه، ومع ذلك فقد حذر القرآن من الميل مع هوى النفس في محاباة الأقرباء ومن يليهم، وأمر بتحري القسط وتتبع الحق المنصف المتجرد من الأهواء والمصالح الشخصية.

وعلى هذه الشاكلة يأتي تحذير القرآن من اتباع الهوى ومجانبة الحق حتى مع الخصوم والأعداء، فمن الإنصاف العقلي والتجرد الفكري ألا يميز الإنسان في أحكامه ومواقفه بين عدو وصديق، بل يكون مقصده الحق وغايته الإنصاف، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، ولو تدبر كل

ذي عقل في هذه الآية الكريمة لوجد فيها دلالة باهرة على عظمة هذا الدين وسمو المنهج العقلي الذي يرسمه لأتباعه.

ولكن أصحاب الأهواء لا يلتفتون إلى هذه المعاني السامية، ولذلك كان موقفهم من دعوة الحق موقف الإعراض والاستكبار، كما قال تعالى ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، وقال ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الروم: ٢٩]، وربما دفعتهم أهواؤهم إلى اتباع الحق في بعض المواقف بما يوافق أغراضهم الدفينة، وهو ما يظهر خبث طويتهم وفساد ضميرهم، كالمنافقين الذين يأبون الإذعان لحكم الرسول إلا أن يكون لهم الحق ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور: ٤٨-٥٠]، وكأهل الكتاب الذين ﴿ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: ٤١].

ولم يفت القرآن الكريم أن يحذر المؤمنين من هذه الأصناف المريضة، فاسدة الرأي والتفكير، فقال تعالى ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠]، وقال ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة: ٤٩].

٣

التقليد

ومن ذلك ما حذر منه القرآن من التقليد، وليس شيء أفسد للاعتقاد وأضر بالفكر وأذهب لسلامة الرأي من التقليد، وهو أوهى حجة يتمسك بها الإنسان في تكوين الاعتقادات والآراء، وله -مع كل ذلك- سطوته على العقول وقبضته على الأنفس، حتى لا يكاد يسلم منه إلا من جاهد نفسه بدروع الاجتهاد وسيوف النظر.

وما أكثر ما تعلل المشركون وأصحاب العقائد الباطلة بالتقليد ليكون لهم عذرًا يسوغ اعتقادهم الباطل ويتخذون منه حجة واهية يردون بها على من أنكر عليهم اعتقادهم، حكى عنهم القرآن ذلك في غير ما موضع، قال تعالى ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢-٢٣]، وقال تعالى حكاية عن قوم إبراهيم عليه السلام بعد أن أنكر عليهم عبادة الأصنام ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣]، وقال في موضع آخر ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤] وقال تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠] وقال ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١]، وقال ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]، وهكذا يصرون على اعتقادهم الباطل، وكلما حاول الرسل أن يبصروهم بضلالهم وخطأ اعتقادهم ازدادوا

إصرارًا عليه وتمسكًا به، مهما كانت العواقب التي تنتظرهم إزاء إصرارهم على هذا الضلال.

والعاقل الحكيم لا يكترث لما توارثه عن السابقين، ولا ينظر إليه بعين التقديس والإجلال، إلا بعد أن يجيل نظره إليه، ويعمل عقله فيه، فإذا أداه إليه اجتهاده المخلص في طلب الحق اتخذه عقيدة له، وقضية يسلم بها عن دليل واقتناع، فلا يجعل مقياس القبول للآراء والقضايا هو توارثها عن آبائه وأجداده، بل يجعل العقل والنظر هو المقياس الصحيح الذي يزن به الموروث وغير الموروث. ومن ثم فقد أجمعت كلمة أهل العلم على أن من الواجب على كل مسلم أن يبني عقيدته على النظر والتفكر وأن يستدل عليها بما يتيسر له من الأدلة البينة التي تخرجه من دائرة التقليد المذموم، استنادًا إلى قوله تعالى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، والمقلد -كما قالوا- لا علم له، إذ ليس له من دليل يصحح عقيدته إلا اتباع السابقين، ولكن ليس من الواجب أن يصل المسلم في استدلاله إلى درجة المتكلمين، وما كان هذا منهج القرآن في الاستدلال على قضايا العقيدة، بل تكفيه الأدلة الظاهرة التي أقامها الله أمام عينه في ملكوت السموات والأرض، مع ما اختصه به من نعمة العقل.

٤

اتباع الكثرة

ومن ذلك ما حذر منه القرآن من اتباع الكثرة والاغترار بها في اعتناق الأفكار والحكم على الآراء، وهو امتداد لفكرة التقليد، لأن صاحب هذا الداء يلغي عقله ويستبدل به عقول الآخرين بشرط أن يبلغوا حدًا من الكثرة يجعله يمني نفسه خداعًا أنه على الحق، بدعوى أن اتفاق عدد كبير من الناس على رأي مما يؤذن بصحة هذا الرأي ويوثق اتباعه ونصرته.

أما منهج القرآن في هذه المسألة فهو على النقيض تماما، إذ لم يجعل القرآن مقياس الحكم على الآراء بكثرة معتنقيها ووفرة عدد المتبعين لها، فالباطل كثير الأتباع، وقد جرت سنة الله في الخلق أن يكون أهل الحق قلة وسط كثيرين من أهل الباطل، ولم يأت ذكر الأكثرية في القرآن إلا مصحوبًا بأوصاف الجهل والضلال والكفر والجحود، قال تعالى في غير موضع ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ، وقال ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ، وقال ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨]، وقال ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، وقال ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٤٢]، وقال ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: ٤] وقال ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، وقال ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤]، وقال ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]، وقال ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ

يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

وفي مقابل ذلك تذكر القلة بالإيمان والشكر، كما قال تعالى ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]

ومن ثم كان من الواجب على المسلم ألا يتخذ من كثرة الأتباع حجة لاعتناق الآراء واعتقاد صحتها، فهذه من المغالطات التي ينبغي أن يتنبه العقل إليها وأن يكون على حذر من الوقوع فيها، فمن حقق في هذا الأمر علم أن كثرة الأتباع لا يكون في كثير من الأحيان إلا عن تقليد أو اتباع هوى، ومن خداع النفس أنها تفرح بمن يوافقها الرأي حتى ولو كان خطأ، وتأنس بكثرة المتبعين له حتى ولو كان باطلا، وتزين للعقل الوقوع في هذه الخدعة بأن كثرة المتبعين دليل على صحة الفكرة وأنها لو كانت خطأ لما اتبعها كثير من الناس، ولا يزال الشيطان يغري نفوس البشر بهذه الخدعة حتى انطلت على كثيرين منهم واتخذوها قاعدة لتصحيح الآراء واتباعها، وهي أبعد ما تكون عن ذلك، وقد حذر الله المؤمنين من هذه المغالطة فقال تعالى ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠].

٥

الخضوع لاستبداد الرأي

ومن ذلك ما حذر منه القرآن من الخضوع للاستبداد في اعتناق الأفكار واتباعها، وهو من امتدادت فكرة التقليد أيضا، لكنه تقليد لا يقوم على اتباع الآباء والسابقين، ولا على اتباع الكثرة، بل على اتباع ذوي السطوة والبأس، وعادة ما يكون ذلك تحت وطأة القهر والاستبداد.

وقد ربى الله تعالى المؤمنين على أن الدنيا ليست بدار جزاء، وأنه مهما لقوا فيها من الابتلاءات والشدائد فلا ينبغي أن يثنيهم ذلك عن التمسك بعقيدتهم، فلا يضرهم محاولات ذوي البأس من أهل الباطل أن يفرضوا عليهم آراءهم الفاسدة بطريق القهر والإجبار، فأهل الإيمان ليسوا من الصنف الذي يقع فريسة لهذا اللون من الاستبداد الفكري، وهم إن لقوا في سبيل تمسكهم بدينهم ما يخشون فيه على حياتهم يعطون للظالمين مقالة الباطل بألسنتهم على كره منهم، وقلوبهم مطمئنة بالإيمان، كما أرشدت الآية الكريمة ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذا الصنف من الناس الذي يخضع لاستبداد الفكر، وحكى حوارًا سيدور بينهم وبين متبوعيهم يوم القيامة، وذلك حين يتبادلون الاتهامات ويتبرأ المتبوعون من الأتباع ويتشبث الأتباع بهم ليحملوا عنهم أوزارهم. قال تعالى (﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ

بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧].

وقال ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣]

وقال في موضع آخر ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١]، وقال في موضع ثالث ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧-٤٨].

وحين يوقن هؤلاء الأتباع أن متبوعيهم لن يغنوا عنهم شيئا في هذا الموقف المهيب لا يملكون إلا أن يصبوا عليهم اللعنات، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧-٦٨].

٦

التعصب

ومن ذلك ما حذر منه القرآن من التعصب، ونعني به الحكم مسبقًا بالصواب المطلق على ما يتبناه الإنسان ويعتقده من العقائد والآراء، من غير نظر أو استدلال، ولما كانت عقيدة المسلم-وهي من القضايا التي يطلب فيها اليقين- قائمة على النظر العقلي والتفكير الصحيح فقد نأت عن آفة التعصب وتطهرت من أدرانه، فما يكون عليه المسلم من التمسك بعقيدته والثبات على مبادئه ليس مبنيًا على اعتقاده المسبق بامتلاك الصواب المطلق منفردًا ومتميزًا عن سائر الناس، بل هو مبني على استقرائه الأدلة ونظره فيها، حتى إذا بلغ منها غاية التحري حصل له اليقين بصحة اعتقاده، واطمأنت نفسه إلى ما هداه الله إليه.

أما من يحكم على عقيدته بالصحة حكما مسبقًا دون نظر وتفتيش، ويغلق عينه عن رؤية ما يخالفها ويصم أذنه عن سماع ما يفارقها فهو أسير التعصب وضحية التطرف، وقد حذر الله تعالى من هذا الصنف من الناس متمثلا في شخصية فرعون، ذلك الملك الطاغية الذي توالت عليه آيات الله البينات وتتابعت أمام عينه المعجزات الباهرة فما كان منه إلا أن أبى واستكبر، وقد حكى عنه القرآن الكريم مقالة التعصب التي أطلقها في قومه، إذ لم يكتف بضلال نفسه وإصراره على الباطل، بل جمع إليه قومه ورعيته وساقهم إلى الضلال والكفر بآيات الله، ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

وقد وردت هذه العبارة في ثنايا خطاب الرجل المؤمن من آل فرعون الذي جهر بكلمة الحق وسط هذا المجتمع الفاسد المريض، وأعمل عقله في الآيات البينات التي جاء

بها موسى عليه السلام، (﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨]، وقد توالت نصائحه المخلصة لقومه أن يتبعوا الحق ولا يصموا آذانهم عنه، وأن ينظروا في الدلائل التي جاءهم بها رسولهم، ليحرك فيهم داعي العقل ويوقظ في نفوسهم جذوة الإنصاف وينذرهم عاقبة ما هم عليه من العناد والكفر، كما حكي عنه الله تعالى قوله ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ [غافر: ٢٩]، وفي أثناء خطابه لقومه ومحاورته لهم يأتي فرعون فيقطع عليه حديثه ويبث في قومه روح التعصب ويعلن- في مقالته الآنفة- أنه وحده الذي يملك الصواب المطلق والحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه!

وفي حياة الإنسان هناك كثير من القضايا الظنية التي لا تبلغ بطبيعتها مبلغ اليقين لكونها مبنية على مقدمات مظنونة، ولما كان معرفة الحق والصواب فيها متوقفة على علمٍ كاشف وإحاطة كاملة فقد أرشد الله المؤمنين إلى مبدأ عظيم ينأى بهم عن دائرة التعصب وذلك قوله ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]

٧

رفض النظر وترك الفكر

ومن ذلك ما حذر منه القرآن من رفض النظر في الدعاوى وترك التفكير فيها، وهو امتداد لفكرة التعصب وفرع عنها، فمن الناس من تعرض عليه دعوة ما تخالف ما هو عليه من الرأي والاعتقاد، وتأتيه الأدلة والبراهين التي تسترعي نظره وتستوقف فكره، ولكنه لا يلقي لها بالا ولا يشغل نفسه بالنظر فيها أو إعمال الفكر في أدلتها، وهو لا يكتفي بهذا الموقف السلبي الذي يلغي فيه عقله، بل يزيد على ذلك سخريته من الدعوة وصده عن سبيلها ومحاولة تشويهها وطمس حقائقها، والذين يتصفون بهذه الصفة هم فئة غير قليلة من الناس، ممن يتناسون عقولهم ويسقطونها من اعتبارهم، فتكون معهم كالآلة المعطلة التي لا فائدة منها.

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذا الصنف من الناس، ووجه إليهم الإنذار الشديد ليستفيقوا من غفلتهم وليوقظوا آلة العقل فيهم، فقال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٦-٧] وقال تعالى ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧-٨]، وقال تعالى ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ [يونس: ٣٩] فهو تكذيب مسبق لا يكلف صاحبه عناء النظر والتفكير فيما يكذب به، ولذلك يوبخهم الله تعالى على هذا الموقف المشين في يوم القيامة ، ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٤]

إن هذا الموقف الرافض للنظر العقلي والمعطل لوظيفة العقل من التفكير والنظر في الأدلة والتأمل فيها هو موقف كثير من أهل الباطل والضلال، فتراهم يأبون الإنصات لدعاة الحق أو التفكر فيما جاءوهم به، فهم يسمعونهم بآذان صماء، ويرونهم بأعين عمياء، قد عطلوا عقولهم وجمدوا على ما هم عليه، ولم يرفعوا بالنظر في الأدلة رأسًا وسكنوا إلى ما ألفته أنفسهم من الاعتقادات الباطلة والآراء الضالة.

قال تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٥-٢٦]، والأكنة على قلوبهم والوقر في آذانهم إنما هو بسبب موقفهم الرافض لاستعمال هذه الآلات فيما خلقت لأجله من التفكير والنظر، فلما رضوا لأنفسهم أن يهملوا آلات الفكر فيهم صارت كأنها معطلة لا قدرة لها على استقبال شيء، فمهما عرضت عليها من الأدلة والبراهين فلن يستجيبوا لها ولن يتأثروا بما جاء فيها ولن تزيدهم الآيات إلا جمودًا على ما هم عليه، مكتفين بازدراء الحق والتسفيه من شأنه.

٨

التكبر والإعراض

ومن ذلك ما حذر منه القرآن من التكبر والإعراض، وهو داء في النفس يبعث على ازدراء الآراء والدعوات المخالفة لما هي عليه، وما أكثر ما صرف هذا الداء الناس عن الإنصات لنداء الإيمان والإذعان لصوت الحق، فمهما توالت الآيات وتتابعت الأدلة لا يغير ذلك من حالهم شيئا، حتى مع شدة استيقانهم ببطلان عقيدتهم وفساد رأيهم، ومع غاية استبصارهم بأدلة الحق وبراهينه الناصعة.

وكثيرًا ما أشار القرآن الكريم إلى هذا الداء العياء والمتلبسين به من المشركين وغيرهم، كما قال تعالى ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢]، وقال ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١]، وقال ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥]، وقال ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]، وقال حكاية عن فرعون ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩]، وقال ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٩]، وقال ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]، وقال ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: ٤]، وقال ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

ولما بالغوا في الإعراض والاستكبار وصف الله حالهم بمن فقد آلات الحس ووسائل

الإدراك، فقال تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥]، وقال ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١] وقال ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧].

ومثل هؤلاء قد بلغوا بأنفسهم غاية الظلم، فمن أظلم ممن عرف الحق واستبصره وتلقاه واضحًا جليًا ثم أعرض عنه؟ كما قال تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف: ٥٧]، وقال ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [السجدة: ٢٢]، والذي بلغ بهم غاية الظلم لأنفسهم أنهم عرفوا الحق وأعرضوا عنه، فلولا لم تبلغهم دعوة الحق فيعذروا بجهلهم! إن هؤلاء لم يبق لهم من عذر بعد أن جاءتهم الآيات البينات ولم يحل بينهم وبين التعرف إليها والنظر فيما جاء فيها أي حائل، فاستحقوا لعنة الله عليهم وعقابه الشديد في الدنيا والآخرة، وقد بين الله حالهم وكشف عن الداء الذي استولى على نفوسهم، فقال تعالى ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]، وقال تعالى ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، وقال تعالى ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣]، وقال تعالى ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

٩

رفض الفكرة لازدراء أصحابها

ومن ذلك ما حذر منه القرآن من رفض الفكرة لازدراء صاحبها أو متبعيها، وهو نوع من التكبر ينشأ من إحساس النفس بعلو شأنها وانحطاط شأن الداعي الذي يوجه إليها دعوته، أو انحطاط شأن المتبعين لها، وصاحب هذا الداء يرفض اتباع الفكرة ولو كانت صحيحة وهو على يقين من صحتها لإحساسه بالاستعلاء وبأنه أرقى شأنا وأعظم منزلة من الذي يدعوه إليها أو من المتبعين لها، وقد يتبع الفكرة وهو غير مقتنع بها لأنها محل قبول واتباع من ذوي السيادة والشرف، ومثل هذا الصنف من الناس يعطل عقله ويحكّم هوى نفسه في القضايا والأفكار التي تعرض عليه.

وما أكثر هؤلاء في كل زمان ومكان، ففي موكب الرسالات السماوية جاء الرسل بدعوة الحق وبالبينات من ربهم، فكان أكثر أتباعهم من الفقراء والمستضعفين، وكان أكثر معارضيهم من الملأ والسادة وذوي السلطة والمال، وقد امتنعوا عن اتباع رسالة الله ووقفوا منها موقف العداء والرفض لأنهم احتقروا المؤمنين بها وسفهوا من شأنهم، فها هم قوم نوح عليه السلام يجيبونه على دعوته لهم إلى عبادة الله الواحد بقولهم (﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧]، وحكي عنهم القرآن أيضا أنهم ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، وقد طلبوا منه أن يطرد هؤلاء الأراذل -كما وصفوهم- شرطًا لاتباعهم له، فكان جوابه عليه السلام ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ

اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٩-٣٠] ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٣١].

أما فرعون فقد نادى في قومه ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١]. وفي قصة الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى اعترض الإسرائيليون على اختيار طالوت ملكا لهم ﴿ قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

ومن نوح إلى محمد صلى الله عليه وسلم ظل الملأ والسادة على حالهم، تأبى عليهم أنفسهم المتشبعة بالكبر والغرور أن تشارك الضعفاء والفقراء في دينهم حتى مع علمهم أنه الحق، فقد حكى القرآن الكريم عن القرشيين اعتراضهم على إنزال الرسالة على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لكونه رجلا من غمار الناس، ليس من عظماء القوم من وجهة نظرهم القاصرة، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، يريدون مكة والطائف، أكبر قرى بلادهم -وهي تهامة من أرض الجزيرة العربية- وهكذا يكون حال المتكبرين حين يستولي الغرور على أنفسهم فيعطلون عقولهم ويحكمون بأهوائهم بغير علم.

١٠

التلون الفكري

ومن ذلك ما حذر منه القرآن من التلون الفكري وعدم الثبات على مبدأ واحد، فمن الناس من يميل إلى الكفة الراجحة حيث تميل، لا يعنيه نصرة حق أو خذلان باطل، بل يتطلع دائمًا إلى ما فيه النفع العاجل والربح القريب، وأمثال هؤلاء كثيرون في حياة الناس، يتخذون النفاق حرفة ويجيدون العزف على مختلف الأوتار والتلون بجميع الألوان، تراهم اليوم في جند الحق منتظمين في صفوف المؤمنين، رغبًا أو رهبًا، فإذا قضوا حاجتهم وحققوا مأربهم انقلبوا على أعقابهم وارتدوا على أدبارهم.

وفي القرآن الكريم حديث مفصل عنهم، فإليهم يشير قوله تعالى في شأن المنافقين ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٢-٧٣]، إنهم لا يرون إلا الغنائم ولا يخشون إلا الموت، فإذا كانت الدائرة على المؤمنين فرحوا بنجاتهم من الموت، وإذا كان النصر حليفا للمؤمنين ندموا على عدم مشاركتهم واقتسامهم الغنائم معهم.

وإليهم يشير قوله تعالى في شأن المنافقين أيضًا ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٨-١٩]، ولو كان في قلوبهم شيء من الإيمان لوقفوا في صفوف المؤمنين

في ساعة الخطر ووقت الشدة ولما اشتغلوا بتقريعهم في وقت الأمن، ولكنهم لا يثبتون على مبدأ ولا يؤمنون بعقيدة، فكانت أعمالهم حابطة مردودة.

كما يشير إليهم قوله تعالى في شأن اليهود ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]، وإنما أعرضوا عن دعوة الإسلام لما جاءت على غير هواهم، فقد كانوا يرجون خروج نبي منهم، فلما اختاره الله من العرب تغير موقفهم، فبعد أن كانوا يطلبون الفتح والنصر على العرب بهذا النبي المرتقب ويقولون لهم إن نبيا الآن مبعثه قد أظل زمانه، يقتلكم قتل عاد وإرم، تحولوا إلى الكفر به ومناصبته العداء، فكان المسلمون يذكرونهم بما أسلفوا ، ويقولون يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن أهل شرك، وتخبروننا أنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته! فيجيبونهم بقولهم: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم!

١١

التعميم في الحكم

ومن ذلك ما حذر منه القرآن من التعميم في الأحكام، وهو داء عقلي خطير يؤدي بصاحبه إلى نتائج هي أبعد ما تكون عن الصحة، لأنه يصدر حكمًا كليًا جامعًا بناء على حالات جزئية قاصرة، بغير استقراء لمجموع هذه الحالات والتأكد من شمولية الحكم لها وصدقه عليها.

وقد أرشد القرآن الكريم إلى تجنب هذا الخطأ الفكري، فثمة قاعدة شرعية تنص عليها الآية الكريمة ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]، والآية الأخرى ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]، فلا يؤاخذ أحد بجريرة الآخر، ولا يتحمل بريء وزر آثم، وإنما لكل إنسان حسابه الخاص، وفي ذلك إشارة إلى العقل ألا يعمم حكمه على القضايا والأفكار التي تعرض عليه انطلاقًا من مجرد ثبوت هذا الحكم لقضية مشابهة.ويقوم منهج القرآن الكريم على الاحتراس في إطلاق الأحكام والابتعاد عن التعميم فيها، فمن يتدبر آياته الكريمة كثيرًا ما يقابله الاستثناء في الأحكام، احتراسًا من تعميمها وتقييدًا لها حتى لا يدخل أفراد لا ينطبق عليهم الحكم فيه، وفي احتراس القرآن من تعميم الحكم استبقاء لوازع الإذعان إلى الحق واتباعه لدى المستثنى، إذ لو عمم القرآن حكمه على جميع أفراد فئة من الناس وفيهم من يتردد صوت الحق في عقله فإن ذلك من شأنه أن يثبط همته وأن يبقيه محصورًا في دائرة الضلال، والآيات الكريمة شاهدة على ذلك المنهج المنصف.

يقول الله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ

إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣]، فهذا الاستثناء في آخر الآية احتراس من تعميم حكم التولي أو الإعراض على جميع بني إسرائيل، ونظيره قوله تعالى ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦] ونظيره مع المنافقين قوله تعالى ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٠] وقوله تعالى ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الفتح: ١٥].

وفي آيات أخرى يأتي الحكم منسوبًا إلى بعض الأفراد دون جميعهم، مصدرًا بـ(من) التبعضية، على نحو ما نجد في الآيات الكريمة: (﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٨-٩٩]، ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وفي حديث القرآن عن المنافقين تستهل آيات كثيرة بـ(من) التبعيضية، حتى لا ينسحب الحكم المذكور عليهم جميعا وهو مقصور على بعضهم، كما في قوله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩] ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [التوبة: ٦١] ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [التوبة: ٧٥]، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨].

ثالثًا: آداب البحث

وبالإضافة إلى ما سبق من المناهج العقلية في التفكير والاستدلال، والاحترازات التي تعصم العقل من الوقوع في شرك المغالطات، فلم يغفل القرآن الكريم عن الإشارة إلى عدد من الآداب أو الأخلاق التي يجب أن يتحلى بها المسلم في طريق نظره العقلي وبحثه الفكري.

١

إنصاف الخصم

فمن ذلك إنصاف الخصم، وهو فرع عن الأمر بتحري العدل في الأحكام وتجنب الهوى حتى ولو مع الأعداء والخصوم، كما قال تعالى ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، ومن إنصاف الخصم في القرآن الكريم نقرأ قوله تعالى ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤] فقد تركت الآيات تعيين المهتدي والضال مترددًا بين طرفي الخصومة، ولم تقطع بنسبتهما إلى أحدهما دون الآخر مع أن أهل الحق متميزون غاية التميز، كما نسبت الآية الكريمة الإجرام إلى المؤمنين، ونسبت مجرد العمل إلى الكافرين، مع أن أعمالهم من أكبر الكبائر، وهذا لون من إنصاف الخصم في المناظرة والتنزل معه في مقام الجدل استمالة له ودفعًا لنفوره، وتلطفًا معه في الحوار.

والقرآن بذلك يرشد المؤمنين إلى ضرورة قراءة نفسية الخصوم ومراعاة أبعادها وأحوالها، وعدم بخسهم حقوقهم وجحدهم فضلهم إن كان لهم من فضل يستحقون أن

يذكروا به، فإذا كان القرآن قد ذم فريقًا من أهل الكتاب لغدرهم وخيانتهم للعهد، فقد أشاد بفريق منهم لا يتورط في هذه الصفة المذمومة، كما قال تعالى ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

بل إن آيات القرآن قد نزلت لتكشف الستر عن جريمة بيّتها بعض المسلمين بليل وأرادوا أن يلصقوا التهمة فيها ببعض اليهود فأنزل الله براءة اليهودي في كتابه، لتبقى شاهدة على إنصاف القرآن لخصومه وإقامته منهجًا منيرًا للعقل ومقومًا للتفكير، وملتمسًا غاية العدل حتى مع المخالفين له، قال تعالى ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]

ومن إنصاف الخصم في القرآن أيضًا الأمانة في نقل أقوال الخصوم وتحري الصدق والدقة فيما ينسبهم إليهم من الآراء والاعتقادات، وهكذا ينبغي أن يكون شأن المؤمنين في جدالهم ومحاوراتهم الفكرية، فلا ينسبون إلى خصومهم ما لم يقولوه أو يدينوا به، ولا يتزيدوا في ما صحت نسبته إليهم وأقروا به.

٢

آداب الجدل

ومن ذلك تجنب الجدل غير المثمر، وترك المناظرة مع من لا يذعن لسلطان الأدلة ولا يستجيب لدعوة الحق، فإن من كان هذا شأنه فالجدل معه مضيعة للوقت وإنفاق للجهد في غير فائدة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الأدب الكريم في معرض وصف عباد الرحمن وذلك في قوله تعالى ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وفي قوله ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، ونلمح الإشارة إلى ترك الجدال الذي لا يرجى من ورائه نفع في الآيتين من حث القرآن الكريم على الإعراض عن الجهلاء وأهل اللغو، فمثل هذه الصفات لا تؤدي بأصحابها إلى الوصول إلى نتائج صحيحة إذا ما دخلوا في مناظرة أو جدل، فقد ارتضوا لأنفسهم أن يسقطوا عقولهم من اعتبارهم وأن ينسبوا إلى الجهل ، وأن يشتغلوا باللغو وسفيه الكلام، فلا يصح أن يضيع المؤمن وقتهم في الرد عليهم أو الدخول معهم في جدال ليست له ثمرة ولا طائل من ورائه، بل لا ينبغي للمسلم أن يحضر مجلسهم فضلا عن أن يصغي إلى مقالتهم الباطلة، وإلى ذلك تشير الآية الكريمة ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وقد تحدث القرآن كثيرًا عن المجادلين بالباطل، المستخفين **بالأدلة** والآيات، المصرين

على الإعراض والكبر، فهذا دأب الكافرين في تلقيهم لدعوة الإسلام على نحو ما أخبرت الآيات الكريمة: ﴿ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦]، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٨-٩]، ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

كما وجه القرآن الكريم إلى ضرورة أن يكون الجدل بالحسنى وأن يقوم على أساس من الرفق واللين وتحري الحق والإذعان للدليل، كما قال تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وهذا التوجيه القرآني الكريم مما ينبغي أن يأخذه المسلم بعين الاعتبار وأن يعممه في حواراته المختلفة سواء في قضايا الدعوة أم في غيرها.

٣

سؤال أهل الذكر

ومن ذلك سؤال أهل المعرفة والاختصاص، في إطار البحث والوصول إلى الحقائق وتمييزها عن الباطل والأكاذيب يحتاج الإنسان إلى مصادر موثوقة تمده بالمعارف والمعلومات التي تساعده على ذلك، ولن يجد أوثق من أهل المعرفة والاختصاص للوصول إليها، ولذلك فقد تكرر في آيات القرآن أمر الله تعالى بسؤال أهل الذكر، قال تعالى ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وفي قوله تعالى ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣] إشارة إلى هذا الطريق أيضًا، فشهادة أهل الكتاب بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم مبنية على أساس معرفتهم الوثيقة به وبأمر مبعثه، كما قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وكما قال ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

كما وجه قوله تعالى ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤] إلى ما نحن بصدده من سؤال أهل المعرفة، فهو أحد الطرق التي يلجأ إليها العقل للتحقق من صحة المعلومات والقضايا، وليس المقصود بالخطاب في هذه الآية شخص النبي صلى الله عليه وسلم ، فالنبي منزه عن الشك فيما أنزل الله إليه، ولكن الخطاب وجه إليه لما كان هو رئيس القوم وأشرفهم، وإن كانوا هم المقصودين بالكلام . وقد وجهت الآية الشاكين في صدق الرسالة إلى سؤال أهل الكتاب، لما بينا من كونهم

محل استشهاد على ذلك بما أوتوا من العلم به.

وأظهر من ذلك في الدلالة على سؤال أهل المعرفة والاختصاص قوله تعالى ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]، فقد أرشدت الآية المؤمنين إلى ضرورة الرجوع إلى ذوي العقل الراجح والفهم السليم الذين يتمكنون من آلات الاجتهاد والنظر في النصوص الشرعية، مما يؤهلهم لاستنباط الأحكام وتقرير الفتاوى، وفي الآية إشارة ظاهرة إلى أن الناس ليسوا على درجة واحدة من الفهم عن النصوص الشرعية، وأنه لابد من رجوع العوام إلى الخواص منهم ليعينوهم على معرفة الأحكام الشرعية، ولابد أن يكون في الأمة من ينهض بالمعرفة الضرورية في كل مجالات العلوم والمعارف، ليكونوا مرجعًا لمن دونهم من غير المتخصصين، كما قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

٤

ترتيب الأولويات

ومن ذلك الحث على الاشتغال بما هو أولى وعدم الانشغال عنه بغيره، ففي زحمة الحياة وكثرة ما فيها من مجالات البحث وتنوع ما فيها من آراء ومعتقدات ومسائل للنظر، هناك أمور جديرة بأن يوجه إليها الإنسان همته وأن يفرغ فيها طاقته في التفكير والبحث، وفي مقابل ذلك هناك أمور لا ينبغي أن ينفق فيها وقته أو يطيل النظر فيها، لأنها لن تعود عليه بالنفع ولن يترتب على اشتغاله بالنظر فيها فائدة علمية أو عملية.

وقد وجه القرآن الكريم إلى ذلك الأدب الكريم في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة: ١٠١]، فالسؤال عن مثل هذه الأشياء التي سكت عنها البيان الإلهي فيه تكلف غير محمود، واشتغال بما لا ينفع، بل ربما يعقب السائل عنه ما يسوءه ويشق عليه، فالله تعالى ما سكت عن هذه الأشياء إلا لحكمة، فوجب على العاقل ألا يشغل نفسه بتتبعها والتفحص عن أمرها لئلا يقع في المحذور.

وفي قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] إشارة إلى هذا الأدب، فقد روى أن رسول الله سئل عن الأهلة لم تبدو دقيقة ثم تمتلئ نورا ثم تعود دقيقة كما كانت ولا تكون على حالة واحدة كالشمس، والسؤال عن الأهلة إن كان المقصود منه السؤال عن السبب في كونها تتحول من الدقة إلى التمام ففيه اشتغال بغير الأولى، ذلك لأن المسؤول هو النبي صلى الله عليه وسلم، وهو لم يبعث ليفسر للناس ظواهر الطبيعة ونواميس الكون، بل بعثه الله مبلغا لشريعته ومبينًا لأحكامه في العبادات

والمعاملات، فسؤاله عن غير ما بعث لأجله فيه ترك للمهم واشتغال عنه بغيره، وقد جاء الجواب الإلهي موجهًا للسائلين أن يراعوا اختصاص المسؤول وأن يكون سؤالهم موافقًا لحاله، فقال تعالى (قل هي مواقيت للناس والحج)، وليس ذلك سببا لتحول الأهلة من حالة إلى حالة، بل هو بيان للحكم الشرعي المترتب على هذه الظاهرة الطبيعة، ففي الآية ما يعرف بجواب الحكيم الذي يوجه السائل إلى ما ينفعه وما هو أولى له في مقام السؤال، والسؤال هنا فيه مطالبة للشارع بما ليس من الشرع، والأولى أن يسأل عن الحكمة من اختلاف الأهلة وما يترتب عليها من الأحكام الشرعية. ولو كان هذا السؤال موجهًا إلى عالم فلك أو طبيعة لما عد قبيحًا أو تاركًا لما هو أولى بالسؤال والبحث.

٥

الجرأة مع الخصم

ومن ذلك الجرأة في عرض الشبهات وأقوال الخصوم وعدم تجاهلها أو التعمية عليها ، فلم يكن من دأب القرآن في عرض أقوال خصومه وشبهاته أن يتجاهل شيئًا منها أو أن يكتفي بتقريع أصحابها وذمهم، بل كانت آيات القرآن تستوفي حكاية أقوالهم وتحرى أمانة النقل ودقة العرض فيما تحكي من شبهاتهم وأباطيلهم، بل إن الله سبحانه وتعالى حكى أقوال الكافرين من المشركين وأهل الكتاب، ممن نسبوا إليه سبحانه ما لا يليق بذاته العلية، وما يأنف القائلون أنفسهم من أن ينسب إليهم!

أولم يحك الله سبحانه وتعالى مقالات أهل الباطل والكفر، فقال تعالى ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧]، ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨]، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٠]، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة: ٦٤]، ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

أو لم يذكر الله سبحانه وتعالى عددًا من شبهاتهم، فقال تعالى في شبهة أهل الربا ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقال في شبهة أهل الجبر من المشركين ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٣٥]، وقال في شبهة المشركين أيضا ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٧-٥٨]، وقال في بعض شبهات أهل الكتاب

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴾ [البقرة: ١١١]، ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠].

ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو أكرم الخلق على الله وأعظمهم منزلة عنده، ومع ذلك فقد أثبت الله في كتابه مقالات أهل الباطل في حقه، مما رموه به من الاتهامات الباطلة والأكاذيب المفتراة، فقال تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [التوبة: ٦١]، ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨].

إن جرأة القرآن في عرض هذه الأقوال والشبهات تنطلق من كونه يتكئ على أسس راسخة من الدليل والبرهان، فالحق لا يخشى من شبهات الضلال وأراجيف المبطلين، ولا يجد أدنى غضاضة في سرد أقوالهم وشبهاتهم، ثم يكر عليها بالتفنيد والدحض، انطلاقًا من قوة حجته وظهور آيته، أما خصوم القرآن فإذا حكوا عنه رأيًا أو نقلوا عنه حكمًا فإنهم يعملون فيه بالتحريف والتزوير، ليصرفوا الناس عنه وليظهروه بمظهر الباطل، كما قال تعالى ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]، وإن عجزوا عن ذلك فإنهم يلجأون إلى طرق أخرى (﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]!

خاتمة

وجملة القول أن القرآن الكريم قد فتح أمام العقول منارات كثيرة تضيء لها طريق النظر وترشدها إلى طرق التفكير، وأقامها على: أصول عقلية كصحة النقل والتماس الدليل، ومناهج فكرية كالاستنباط والاستقراء والتمثيل، ومسلمات بدهية كالسببية وامتناع اجتماع النقيضين.

وحذر من عثرات الفكر ومغالطات العقل؛ كالاعتماد على الظن واتباع الهوى والتقليد واتباع رأي الأكثرية والخضوع للاستبداد والتعصب ورفض النظر في الدعاوى والتكبر والإعراض ورفض الفكرة لازدراء أصحابها والتلون الفكري والتعميم في الأحكام.

وأرشد إلى عددٍ من آداب البحث كإنصاف الخصم وتجنب الجدل غير المثمر وسؤال أهل المعرفة والاختصاص، والاشتغال بما هو أولى والجرأة في عرض الشبهات وأقوال الخصوم.

وبعد؛ فإن واقع المسلمين اليوم يحتم عليهم أن يكونوا أصحاب الصوت الأعلى والحجة الأظهر، بعد أن تعالت أصوات المنافقين والذين في قلوبهم مرض والمرجفين في المدينة، وكم راجت أباطيل وانتشرت ضلالات تخدع العقول وتزيف الحقائق بفضل علو أصواتها وقوة تأثيرها، ولا سبيل إلى مواجهتها إلا بتحصين العقول وتصحيح الأفكار لتستطيع أن تميز هذه المغالطات وتكشف عوارها.

وفي القرآن الكريم زاد عظيم يعين المسلم على بلوغ هذا الغرض، فتدبروه وأعيدوا قراءته بعقول واعية وقلوب مخلصة، ففي تدبره والعمل بما فيه خير عظيم، هو أولى بحاجة

الأمة اليوم من أن تكثر قراءته دون وعي ودون عمل.

اللهم ارزقنا حسن الفهم عن كلامك وأعنا على العمل بما فيه، ولا تجعلنا من المحرومين.

القسم الثاني

دفع شبهات المرتاب

عن أم الكتاب

تصدير

أقبل الشهر الكريم، شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، فتسارع المسلمون إلى كتاب ربهم، يتدارسون آياته وسوره، ويتلونه آناء الليل وأطراف النهار، منهم من يتدبر معانيه، ومنهم من يلتمس تكثير الثواب بتكثير الأجزاء والختمات، وكلهم من عطاء الله ملتمس، وما كان عطاء ربك محظورا.

فقمت إلى المصحف الشريف، أستهل ختمة رمضانية مباركة، أرجو أن تكون مقبولة عند الله، تجلو ما ران على القلب من صدأ، وتزيل ما تراكم على البصر من غشاوة، فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد، وجلاؤها القرآن، وقد أخبر الله تعالى عن كتابه بأنه شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين.

وما إن أمسكت المصحف بين يدي وأقبلت على كلام الله أقرؤه وأتدبره، حتى طرق خاطري طارق لا أحسبه جاء بخير، فقد علته سيما الغرور والاستعلاء، وملء عينيه السخرية والاستهزاء، فقطع عليّ تلاوتي وبادرني بالحديث قائلا:

أراك أسير التقليد، ومن اتباع الآباء والأجداد غير بعيد!

فأفزعني دخوله عليّ وأنا على تلك الحال، وهالني ما رماني به من سيء الأقوال ، وقلت له مغضبا: بئس الطارق أنت، تقتحم علي مجلسي بغير إذن، وترميني بما أنا منه بريء، ألا تستحي لمقام الشهر الكريم؟

فقال: رويدك يا صاحبي، سواء عليك أأذنت لي أم لم تأذن، فدخولي عليك لا يعرف

قيود الأبواب أو الأستار، فدعنا من هذا الأمر إلى ما طرقت مجلسك لأجله، واعلم بأن ما يصرفني عنك هو أن تظهر دليل براءتك التي تدعيها، وما أظنك بفاعل!

فعجبت لهذا التطاول، وتلك الجرأة في الباطل، وأيقنت أنه جاء مبارزًا بالحوار، ومستعرضًا بالجدل الثرثار، فقلت له: أما وقد ركبت متن الغرور، ورميتني بالبهتان والزور، فأنا لك رصد، فهات ما عندك إن كنت صاحب عقل ورَشد، ليستبين المقلد من المجتهد.

فلما سمع مقالتي تهيأ للحوار واتخذ له سمت الباحث عن الحق، وأظهر أنه ينشد الدليل والبرهان، وأنه مع الدليل حيث دار، فقال: إن هذا الكتاب الذي تعكف على قراءته وتنفق وقتك في حفظه وتلاوته، ما هو -إن تأملته ونفضت عن عقلك غبار التقليد الأعمى وإسار الاتباع المطلق- إلا إفك افتراه صاحبكم، والباطل يجري فيه من بين يديه ومن خلفه، وما فيه من القصص والأخبار والمعاني إنما هو من أساطير الأولين، وقد خدعت به كما خدع آباؤك، ولو أعملت عقلك لكشف لك عما فيه من الزيف المستتر وراء بريق البلاغة المخادعة، وحتى هذه لم تسلم له، فما أكثر ما فيه من العي وفساد القول واضطراب النظم، وإن شئت دليلا على ما أقول فلن أكلفك كبير عناء، فلتنظر في فاتحة هذا الكتاب، ولتتأملها بعقل بصير، ليتكشف لك وجه الحق.

فقلت له: بئس ما قلت وما جئتني به، ألهذا قطعت علي تلاوتي؟ ولقد علمت أن ما افتريته على كتاب الله ليس بدعًا من القول أحدثته، وقد حكى القرآن عن خصومه أنهم رموه بهذه الأباطيل، وتحداهم ليأتوا بمثله -مع ما فيه من الافتراءات التي ادعوها- فعجزوا، ومع ذلك فلتخرج ما في جعبتك إن كنت طالبًا للدليل باحثًا عن الحق، فها هي فاتحة الكتاب -ولم أكن قد تجاوزتها بعد- فلتظهر ما فيها من باطل وزيف واضطراب في البلاغة والنظم.

فقال: سأسرد عليك فيها سبع مسائل، فيها لطالب الدليل حجته، وللباحث عن الحق بغيته، وما هي إلا أمثلة يحتذي بها، وفي هذا الكتاب كثير غيرها.

١

البسملة

قلت فهات الأولى، قال: أما الأولى فإنكم تزعمون أن هذا القرآن محفوظ من الزيادة والنقص، وأن كل آية منه بل كل حرف فيه ثابت في النقل بطريق القطع، فأين هذا مما وقعتم فيه من اختلاف حول البسملة من هذه السورة، فقد اختلفت فيها الآراء وتضاربت وذهبت أقوال القراء والفقهاء فيها كل مذهب، فهذا يقول أنها آية من السورة، وذلك يقول إنها ليست منها، وثالث يقول إنها للتبرك في أوائل السور، ومن أراد منكم أن يصلي الصلوات المكتوبة فإما أن يقلد من أثبتها آية فتبطل صلاته بتركها، وإما أن يقلد من أسقطها من الفاتحة فيكون قد أتى مكروها بتلاوتها.

وقد تجاوز بعضكم هذا القدر الهائل من الاختلاف الذي لا يليق بمكانة هذا الكتاب لديكم إلى ما هو أبعد وأعظم، فقد أسقط ابن مسعود هذه السورة كلها من مصحفه!

قلت: قد جئت بالشك والارتياب في أم الكتاب، وتلك شبهة تحتاج إلى تفصيل وبيان، فإليك ما أجتهد فيه من الجواب.

فأقول : لقد اختلف المسلمون وتعددت مشاربهم في اعتبار البسملة آية من فاتحة الكتاب، وهو اختلاف حاصل لا ننكره، ولا نعمي أعيننا عنه، ولكنا نضعه في سياقه الصحيح إحقاقًا للحق والتماسًا للدليل والبرهان، وعندما نضع هذا الاختلاف في سياقه يتبين لنا أن المسلمين لم يختلفوا في أن أصل البسملة جزء من كتاب الله، لا يسع أحدًا أن ينكر قرآنيتها أو يسقطها من القرآن الكريم، وذلك لقوله تعالى في سورة النمل على لسان ملكة

سبأ: "إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم"، وهذه المقدمة لابد منها قبل الحديث عن اختلافهم في بسملة الفاتحة، لأن مثلك من أصحاب الشبهات أيضا من يزعم أن البسملة أثر من آثار تأثر محمد -صلى الله عليه وسلم- بالمسيحية، وذلك أنه ورد في بعض الروايات أنه كان يكتب في بادئ الأمر باسمك اللهم، إلى أن جرت الرسائل بينه وبين الملوك فأخذ عنهم البسملة التي هي بموجب هذا التصور سريانية الأصل، وكانت في لغتهم "بشم ألوهه رحمانو رحيمو".

فاستوقفتني نظراته التي ارتسمت عليها علامات الدهشة، وكأنه يعجب لعلمي بهذه الشبهة، فبادرته قائلا: أوتظن أن المسلمين مغيبون عما يدور حولهم وما يحوكه المتربصون بهم من شبهات؟ إن أمة الإسلام لن تعدم عينًا ساهرة على ثغورها الحصينة، وبالعلم والدليل يكون الرد والبرهان، فمن أمارات التهافت الظاهر في هذه الشبهة أن مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم للملوك إنما كانت في أواخر العهد المدني بعد صلح الحديبية، وسورة النمل من السور المكية الخالصة، ولكن أصحاب الشبهات يريدون أن يخرجوا الإسلام من ثوبه، ويلبسوه ثوبًا آخر يوافق أهواءهم حتى وإن لم يوافق الواقع والتاريخ والدليل العلمي.

قال فدعنا من أمر البسملة السريانية وأجب عن بسملة الفاتحة، ففيها طعن صريح في وثاقة النص القرآني.

قلت: قد مهدت للحديث عن بسملة الفاتحة بتقرير إجماع المسلمين على أن البسملة نفسها جزء آية من القرآن الكريم، ومن الراجح أن شيوع البسملة في القرآن لم يتأخر إلى نزولها في آية النمل، فقد ورد عن ابن عباس أنه قال : « كَانَ النَّبِيُّ لا يَعْرِفُ فَصْلَ السُّورَةِ حَتَّى تَنَزَّلَ عَلَيْهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم »، فنزولها قد تكرر مع استهلال كل سورة، ولذلك أثبتها المسلمون في المصحف في أوائل السور.

فإذا ثبت أن البسملة كانت تنزل بوحي إلهي، وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرؤها في صدر كل سورة -عدا براءة كما هو معلوم- فهذا يعني أن البسملة ليست أجنبية عن القرآن، وليست كلاما أقحم على النص القرآني وإنما هي وثيقة الصلة به.

فقال: إن ما تحاول أن تقرره باطل بدليل الاختلاف الذي ليس بوسعك أن تنكره ولا أن تتبرأ منه.

فقلت: مهلا، فلم أنته إلى تقرير، ولم أتم دليلي بعد، وما وصلنا إليه هو مقدمة نبني عليها نتيجة جديدة، فثبوت قرآنية البسملة في سورة النمل هو أمر قطعي لا احتمال فيه، أما ثبوتها في الفاتحة وفي أوائل السور فهو الذي وقع فيه الخلاف، وعلينا أن نضع هذا الخلاف في سياقه بناء على ما تقدم من الإقرار بعدم انفصالها عن النص القرآني

فقال: أي سياق تدعيه، إنك تقول أن البسملة ليست أجنبية عن القرآن، ثم تذكر خلاف المسلمين في إثباتها في أوائل سور القرآن، فهل هي قرآن أم ليست قرآنا؟ فإن كانت قرآنا فكيف اختلفوا فيها؟ وإن لم تكن قرآنا فكيف أثبتوها فيه؟

قلت: بسملة النمل قرآن لم يختلفوا فيه، وأما بسملة أوائل السور -ومنها بسملة الفاتحة- فما نقطع به أنها وحي، وليس كل وحي قرآنًا، وهذا هو جوهر الخلاف في هذه القضية، فالذين أثبتوا البسملة آية من الفاتحة والذين نفوها كلاهما لم ينف أنها نزلت بوحي لفظًا ومعنىً، لكنهم اختلفوا حول ما وراء كونها وحيا، أهو وحي قرآني أم وحي إرشادي لكونها دعاء أو ذكرًا شرعه الله عند استهلال تلاوة السور، ولذلك قال الشوكاني في نيل الأوطار في الكلام عن البسملة : واعلم أن الأمة أجمعت أنه لا يكفر من أثبتها ، ولا من نفاها ، لاختلاف العلماء فيها ، بخلاف ما لو نفى حرفاً مُجمعاً عليه ، أو أثبت ما لم يقل به

أحد : فإنه يكفر بالإجماع . ولا خلاف أنها آية في أثناء سورة النمل ، ولا خلاف في إثباتها خطّاً في أوائل السور في المصحف ، إلا في أول سورة التوبة " .أ .ه

فالنافون -فضلا عن المثبتين- لم ينفوا تعلق البسملة بالنص القرآني، وإنما اختلفوا حول قرآنيتها في أوائل السور، ومن حقنا أن نتساءل -لنضع هذا الأمر في سياقه الصحيح- عن مشروعية هذا الاختلاف، وعما يترتب عليه من أثر فيما يتعلق بوثاقة النص القرآني وتواتر نقله.

إن اختلاف المسلمين حول إثبات قرآنية البسملة في الفاتحة وفي أوائل السور اختلاف مشروع، له ما يسوغه، وهو في الوقت نفسه مما لا يقدح في وثاقة النص القرآني ولا يمس قطعية نقله المتواتر، وبيان ذلك أن نزول البسملة استهلالا للوحي القرآني المتمثل في سور القرآن الكريم هو أمر ثابت في النقل وخط المصحف، ولم ينازع في ذلك أحد من المسلمين، فجميعهم يثبت البسملة في أوائل السور، وهذا مصحفهم أثبتت فيه البسملة في صدر كل سورة عدا براءة، ولم تكن البسملة لتقترن بالنص القرآني تلاوة وخطًا إلا بتوقيف، فهي نازلة بوحي وثابتة في التلاوة والخط بتوقيف، ولم يكن لأحد من المسلمين أن يثبتها في التلاوة والخط من دون إذن شرعي، وقد بالغوا في تجريد القرآن مما ليس منه، حتى كره بعضهم كتابة اسم السورة في المصاحف.

وهذا أدعى إلى عد البسملة آية من الفاتحة ومن كل سورة، وهو مما استدل به المثبتون، ولسنا هنا بصدد الانتصار لرأيهم أو لرأي النافين، لكننا نوضح مشروعية الاختلاف، وأن له ما يسوغه، وأن وقوعه لا يقدح في وثاقة النص القرآني.

فنقول إن اختلاف المسلمين حول قرآنية البسملة في أول سورة الفاتحة وأوائل السور لم

يكن إلا بأدلة نقلية، هي التي سوغت وقوع هذا الاختلاف وسوغت وجوده، وهذه الأدلة لا تخرج البسملة عن كونها وحيًا إلهيًا، لكنها قد تخرجها عن كونها (قرآنًا) يكفر جاحده، وليس معنى ذلك أن المسلمين كانوا يخلطون القرآن بغيره، فقد علمت أنهم لم يثبتوا البسملة في التلاوة والخط إلا بتوقيف، وهذا التوقيف مقرونًا إليه الأدلة النقلية فتح بابًا للخلاف، وهو باب مشروع لا يقدح في النص القرآني وقطعية ثبوته، حتى مع نفي قرآنية البسملة، فلو ثبت أنها ليست من القرآن فإنها لا تخرج عن كونها وحيًا أنزله الله، والوحي -كما هو ظاهر- غير مقصور على القرآن، وإنما يكون الكلام حينئذ في مسألتين:

الأولى: ما وجه إثبات البسملة في التلاوة والخط مع كونها ليست قرآنا؟

الثانية: ما الذي يمنع حينئذ من أن يقال إن في القرآن كثيرًا من الآيات أثبتت فيه وهي ليست منه؟

أما عن العلة من إثبات البسملة في التلاوة والخط مع كونها ليست قرآنا -عند من أنكر قرآنيتها في أوائل السور- فهذا لم يكن ليقع إلا بتوقيف شرعي، وبموجب هذا التوقيف أو الإذن الشرعي تداول المسلمون من لدن النبي صلى الله عليه وسلم تلاوة البسملة في أوائل السور، وقد تعلم أن القارئ للقرآن إذا شرع في تلاوته يسن له أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وإذا بلغ أواخر القرآن أن يكبر بين السورتين، وإذا مر بآية رحمة أو عذاب أن يلهج إلى الله بالدعاء، وهذه كلها أدعية وأذكار شرعت لقارئ القرآن دون أن تكون جزءًا من النص القرآني، ولكن الخصوصية التي تميزت بها البسملة أنها أثبتت في خط المصحف، ولم يكن هذا ليقع إلا بتوقيف شرعي كما سلف، لأن القرآن كتب في حضرة النبي وبتوقيف منه.

وأما عن الضابط الذي يمنع من أن يقال إن في القرآن آيات أخرى كثيرة يظنها المسلمون منه وليست منه، وإنما هي أدعية وأذكار أثبتها المسلمون في كتابهم وليست منه، وقد يقال حينئذ إن الفاتحة كلها من هذا القبيل، وقد يستشهد على ذلك بما روي أن ابن مسعود أسقطها كلها من مصحفه. فأقول: إن الضابط الذي يزول به هذا الإشكال هو استفاضة النقل بوقوع الخلاف، فالثابت لدى الجميع أن المسلمين لم يختلفوا حول قرآنية شيء مما بين دفتي المصحف إلا البسملة التي في أوائل السور فحسب، وما سوى ذلك مجمع على قرآنيته، لم يختلف في ذلك أحد من المسلمين، وفي هذا دليل على انحصار الخلاف في البسملة، وضابط مانع من أن ينسحب هذا الخلاف على شيء من آيات القرآن العظيم.

وأما هذه الرواية عن ابن مسعود فهي رواية آحاد لا تنهض أمام تواتر النص القرآني، بل لا تنهض أمام تواتر الرواية عن ابن مسعود وغيره من الصحابة بقرآنية الفاتحة، وعلى فرض صحتها فهناك احتمالات عديدة لعدم كتابته للفاتحة في مصحفه، وكل دليل تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال، فمن الاحتمالات أن مصحفه لم يكن مشتملا على جميع القرآن، أو أنه رأى أنه يلزم كتابتها في فاتحة كل سورة من كل سور القرآن -كما ورد عليه في الرواية نفسها- فلذلك تركها تخفيفا ودفعًا للمشقة، وعلى كل الاحتمالات فإن مصاحف الصحابة الشخصية لا تمثل النسخة المعتمدة من القرآن ، فبعضهم كان يدون فيها شروحًا أو تفسيرات لبعض الآيات، والنسخة المعتمدة هي التي جمعت في عهد أبي بكر الصديق ونسخت في عهد عثمان بن عفان، ووزعت على الأمصار المختلفة، وقبل ذلك وبعده فالأصل في ثبوت القرآن هو النقل الشفهي المتواتر.

٢

الرحمن

قلت: فهذا ما كان من اجتهادي لرد شبهتك الأولى، فهات الثانية.

قال: إن حاولت أن تسقط الشبهة عن البسملة ومحلها من الفاتحة، فما تقول في لفظ (الرحمن)؟

قلت: ماذا فيه من الإشكال؟

قال: ألا تعلم أن (الرحمن) كان إلهًا معبودًا في جزيرة العرب، عرفه أهل اليمن وأهل اليمامة، وكان مسلمة بن حبيب الحنفي -الذي سميتموه مسيلمة الكذاب- يتخذه معبودا له، وقد ملأتم سيرته بالأكاذيب والافتراءات حتى جعلتموه أشبه بالمجانين مع أنه كان رئيسًا لقومه معظمًا فيهم، وبعضهم ظل تابعا له حتى بعد مقتله، وقد أردتم أن تشوهوا سيرته لتقطعوا الصلة بين (الإسلام) وبين (عبادة الرحمن) التي عرفت قبل ظهوره وتنبأ بها مسلمة.

وإطلاق اسم (الرحمن) على الله لم يكن معروفًا عند العرب، ولذلك اعترف بعض مفسريكم بأنه لفظ غير عربي، وأن وصف الرحمن لم يطلق في كلام العرب قبل الإسلام وأن القرآن هو الذي جاء به صفة لله، وعندما أطلق القرآن هذا الاسم على الله، تعجب القرشيون وقالوا إن محمدا صار يعبد إلهين: الله والرحمن، ولذلك امتنعوا عن السجود لـ(الرحمن)، لأنهم لا يعرفون إلا (رحمن اليمامة)، ولم تكن قريش لتقبل أن تكون تابعة لأحد.

ومن الخطأ الجسيم اعتقادكم أن (الرحمن) اسم عربي مشتق من الرحمة، ولو تأملتكم في كتابكم لوجدتم أن استعمالات هذا اللفظ لا تدل على الرحمة مطلقا، فأين الرحمة في الآيات الآتية: (إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن) (ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا) (وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا) (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا)؟

ولو تأملتم فيه أيضا لوجدتم أن هذا الاسم ظل يتردد فترة في السور المكية إلى أن انقطع ذكره تماما، بعد أن أثار إشكالات عدة وجدلا كبيرا بين المسلمين والقرشيين، كما يظهر في آية الإسراء: (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًا ما تدعوا فله الأسماء الحسني)، وقد ظل هذا الجدل يتردد صداه إلى صلح الحديبية حين اعترض القرشيون على تصديره بالبسملة، وقالوا: أما الرحمن فلا نعرفه .

فقلت له: حسبك، قد عرفت ما ترمي إليه من وراء كلامك، وإني لمجيب عنه بما يفتح الله به علي.

إن ما يظهر من هذا الإشكال هو مناقشة لفظ الرحمن في أصله اللغوي ودلالته المعروفة قبل نزول القرآن، وقد شككت في أن يكون عربي الأصل، وأرجعت دلالته إلى بعض معتقدات العرب الجاهليين، وأنت تريد أن تصل من وراء ذلك كله إلى أن تقول- كما يقول غيرك من أصحاب دعوى (الإسلام المبكر)- إن الوقائع التاريخية والاكتشافات الأثرية والوثائق والحفريات، كل ذلك يشهد أن التوحيد الذي جاء به الإسلام لم يكن بدعة في المجتمع العربي، وإنما هو مرحلة من مراحل تطور عقائد العرب. فلنقف الآن بالمراجعة والنقد لما جئت به:

أولا: عبادة (الرحمن) في الجاهلية: إن كتابات المؤرخين لحياة العرب العقدية قبل الإسلام تشير إلى معبود لهم، أطلق عليه (رحمنن) أو (رحمنه) وذلك في جنوب جزيرة العرب وفي شرقها، كما تشير هذه الكتابات إلى تأثير هذه العبادة في نصارى الجزيرة العربية، ولئن صحت مثل هذه الدراسات فهي لا تشوش على عقيدة التوحيد الإسلامية ولا تمسها في أصلها الإلهي الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من طريق الوحي النبوي الذي لا يتطرق الشك إلى صدقه وصحته، فالقرآن الكريم نفسه يعطينا إشارات إلى أن البشرية كلها كانت على عقيدة واحدة وهي التوحيد، ثم غير الناس وبدلوا فأرسل الله الرسل وأنزل الشرائع بعد أن حدث الاختلاف والتبديل، فيقول الله تعالى (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين).

والذين درسوا تاريخ نشأة الدين في المجتمعات البشرية يلاحظون تشابها ظاهرا بين عقائد الأمم المتباعدة في موقعها الجغرافي وامتدادها الزمني، ولكن بعضهم يأبى أن يرى في هذا التشابه دليلا على أنهم يصدرون عن أصل واحد شابه التحريف وبقيت منه أصول مشتركة، بل يدعون أنه دليل على تطور البشرية في مسيرتها العقدية وتأثر بعضها ببعض، كما تحاول الآن أن تثبت تأثر التوحيد الإسلامي بتوحيد العرب القدماء، ليكون في نظرك امتدادًا له وتطورًا بشريًا محضًا لفكرة التوحيد، بانتقالها من ذلك المعبود الجاهلي الذي كانوا يسمونه (رحمنن) إلى المعبود الحق (الله - الرحمن).

فإذا ثبت أن بعض العرب عرفوا التوحيد لمعبود بهذا الاسم، فهذا لا يسقط أصالة التوحيد الإسلامي الذي نزل به الوحي الإلهي على محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، فربما كان توحيد العرب الذي تشير إليه الدراسات التاريخية الحديثة أثرًا من آثار الفطرة الواحدة، أو الأصل الواحد الذي انحرف عنه الناس، وعلى أية حال فإن (رحمنن) العرب

ليس هو (الرحمن) في المفهوم الإسلامي كما سيأتيك بيانه.

نخلص من ذلك إلى أننا نسلم بوجود عبادة عرفها بعض العرب قبل الإسلام، اتخذوا فيها معبودًا أطلقوا عليه (رحمنن) أو إن شئت فقل (الرحمن)، غير أنهم لم يقصدوا به المعبود الحق وهو الله تعالى، وإن اتخذت هذه العبادة شكلا توحيديا فهذا لا يلزم عنه ارتباط التوحيد الإسلامي بها، أو ادعاء تطوره عنها، فكثير من العقائد القديمة تتشابه في تصورات عقدية مشتركة، وليس في ذلك دليل صادق على إنكار الوحي والقول بتطور الأديان، فنحن نقول إن هذه العقائد المتشابهة ترجع إلى أصل واحد، لكنها انحرفت عنه، وهذا أقرب إلى العقل والمنطق من القول بالتطور، فالتشابه الذي يثبته تاريخ الأديان لا يدل امتداده المكاني على إمكانية التواصل أو التأثر بين أهل هذه البلاد المتباعدة في الموقع الجغرافي.

بقيت نقطة قبل الانتقال إلى مناقشة الفكرة الثانية، وهي ما يتعلق بمسيلمة الكذاب، وهذه التسمية ليست تجنيًا عليه بالباطل، فإنه افترى على الله الكذب ودعا الناس إلى الباطل، وإذا كانت بعض الروايات قد تزيدت في بعض أخباره أو نسبت إليه ما لم يصدر عنه، فهذا لا ينفي عنه حقيقة حاله التي يلخصها لقبه الموسوم به. وقد اشتط هذا الدعيّ في بهتانه حتى تلقب هو نفسه بـ(الرحمن)، ففي زمن الردة قال فيه بعض شعراء بني حنيفة

سموت بالمجد يابن الأكرمين أبًا

وأنت غيث الورى لا زلت رحمانا

وقد يكون هذا الإطلاق نسبة إلى العبادة التي عرفها أهل اليمامة في الجاهلية، ولا أستبعد أن يكون من باب التمازج بين (الكاهن) و(المعبود)، ومثل هذا التمازج تحدثنا عنه

الدراسات الميثولوجية.

ثانيا: إطلاق اسم (الرحمن) على الله: ذكر الشيخ الطاهر بن عاشور صاحب تفسير التحرير والتنوير أن إطلاق اسم (الرحمن) على الله لم يكن معروفًا في الجاهلية، أو أن أنهم تناسوه في كلامهم، ولذلك أنكروا إطلاقه على الله على نحو ما ذكرت الآية الكريمة (قالوا وما الرحمن)، وإن كان الطبري قد أول الآية على مكابرة المشركين وجحودهم ما كانوا عالمين به، فإن ظاهر الروايات في هذه القضية يرجح ما ذهب إليه ابن عاشور، فما روي من أن بعضهم سمع دعاء النبي (يا الله يا رحمن) فقال إن محمدًا يدعو إلهين، يدل على أنهم ربطوا بين (الرحمن) و(معبود اليمامة)، فنزل البيان القرآني للرد على هذه المقالة وذلك في قوله تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى)، ومفاد الآية بأن (الله) و(الرحمن) كلاهما من أسماء الله الحسنى، وإذا دعا المسلم بأيٍ منهما فهو يتوجه بدعائه إلى إلهه الواحد، لا إلى غيره من المعبودات الباطلة التي كانوا يدعونها من دون الله.

ولابد من الربط بين هذه الآية (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) وبين قوله تعالى في سورة الأعراف (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه)، فقد ذكر المفسرون أن من إلحادهم في أسماء الله أنهم اشتقوا منها بعض أسماء معبوداتهم الباطلة من الأصنام وغيرها، فاشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، غير أن المفسرين لم يقرنوا بين (الرحمن) في الجاهلية و(الرحمن) في الإسلام، ربما لأن هذا الاسم تصرف فيه العرب حتى انتهى إلى هذه الصيغة العربية (فعلان)، وهي الصيغة نفسها التي استعملها القرآن ، ولكني أرى أنه لابد من الربط بين الاستعمالين الجاهلي والقرآني لكلمة (الرحمن)، فقد وقع الإلحاد في هذا الاسم، لا باشتقاق اسم آخر منه، ولكن بإطلاقه على

غير الله، ثم لما جاء القرآن وأطلقه على الله تعالى أنكره المشركون ظنًا منهم أن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم قد تخلت عن مبدأ التوحيد الذي قامت عليه، والسبب في ذلك يرجع إلى إلحادهم في هذا الاسم بتغييره عن مفهومه الصحيح.

ثالثا: اسم (الرحمن) في القرآن: ذكر أهل اللغة أن لفظ (الرحمن) لفظ عربي خالص، مشتق من الرحمة، ويلاحظ من استعمال هذا اللفظ الشريف في آيات القرآن أمران، أحدهما متعلق بالمعنى، والآخر متعلق بتاريخ النزول.

فأما ما يتعلق بالمعنى فكثير من الآيات التي ورد فيها اسم الرحمن لا تخرج عن معنى الرحمة الذي اشتقت منه، فلم يقترن اسم الرحمن في القرآن سوى باسمين من الأسماء الحسنى، وهما (الله) و(الرحيم)، نقرأ ذلك في البسملة وهي متكررة في سور القرآن، ونقرأ ذلك في قوله تعالى (تنزيل من الرحمن الرحيم)، وفي قوله (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم)، واقتران هذا الاسم بـ(الرحيم) مما يؤكد معنى الرحمة فيه.

لكن الإشكال المطروح حول انتفاء صفة الرحمة في (الرحمن) لا يظهر إلا في السياقات التي يستعمل فيها اسم الرحمن منفردًا بغير أن يقرن إلى غيره من أسماء الله، ففي هذه السياقات قد يخفى معنى الرحمة أو يغيب عن نظر القارئ، على نحو ما في الآيات المذكورة في الإشكال، ومن ثم فقد ذهب -من قديم- بعض العلماء إلى القول بأنه علم غير مشتق، ولكن هذا الرأي مرجوح، لأن الرد على الإشكال ممكن من حيث إن من عادة القرآن أن يمزج الترغيب بالترهيب، فلا يبعد أن يأتي باسم يدل على الرحمة في سياقات التخويف والعذاب، وفي القرآن الكريم: (أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم)

وأما ما يتعلق بتاريخ نزول (الرحمن) فقد زعم كثير من المستشرقين أن القرآن

استخدم هذا اللفظ لفترة معينة من العهد المكي ثم غاب عن السور المدنية تماما، وهو زعم مفتقر إلى الصحة، ففي السور المدنية الخالصة تأتي سورة البقرة متضمنة لهذا الاسم الشريف وذلك في قوله تعالى (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم)، كما أن البسملة التي كان يتكرر نزولها في أوائل السور لم يغب عنها اسم الله (الرحمن) في السور المدنية، ومن الخطل الذي ادعاه نولدكه شيخ المستشرقين الألمان في زعمه هذا أنه من المحتمل أن يكون محمدًا قد تخلى عن هذا الاسم من جديد بعد أن بدأ يشيع في سور القرآن لمواجهة الشك بأنه كان يكرم إلهين: الله والرحمن!

ولا أدري كيف يغيب عن ذهنه أن السور التي تضمنت اسم الرحمن لم تتوقف تلاوتها بعد مقالة المشركين المشار إليها، بل عمد القرآن إلى إبطال شبهتهم ببيان إلحادهم في أسماء الله ليثبت المسلمون إزاء هذه المحاولات المستمرة من المشركين لإدخال الشك في قلوب المسلمين وصرفهم عن دعوة الإسلام الخالصة، فهل يعفى المسلمون من الحرج -إن صحت للمشركين شبهتهم- أن لا يذكر القرآن اسم الرحمن بعد أن بدأ يتردد في آياته وسوره؟ وهل تسقط السور السابقة بالتقادم؟؟

إن هذا اللغط الذي أثاره المتربصون بالقرآن قديمًا وحديثًا حول اسم الله (الرحمن) ليس وراءه شيء يثبت أمام البحث العلمي المجرد من الأهواء والأحكام المسبقة، فدعاوى الاستشراق الكلاسيكي كانت تسعى إلى إثبات بشرية النص القرآني وتاريخيته، مستعينة على ذلك بالمناهج اللغوية التي سادت في صدر القرن العشرين، والاستشراق الجديد يسعى إلى إثبات بشرية القرآن أيضا، ويضيف إلى ذلك أن الإسلام هو مجرد دعوة تطورت عن أفكار سابقة واستمدت مكوناتها المعرفية والتشريعية من ثقافات الأمم الماضية، حتى أرجعوا كلمات القرآن إلى لغات هذه الأمم، ومضوا يفسرونها بالآرامية والسريانية

والعبرانية والحبشية، وكأنه كتاب أعجمي، وصدق رب العزة إذ يقول: (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين).

٣

القراءات

فهذا ما كان من اجتهادي حول مسألتك الثانية، فما الثالثة؟

قال: أراك تجتهد في رد قول من يبصرك بالحق، ويزيل عن عينك غشاوة التقليد، وتحمل على الاستشراق الجديد مع ما فيه من الأدلة والبراهين القوية، فإن سلمت لك ما قلته في أمر (الرحمن)، فقل لي كيف تقرأ الفاتحة بهذا الكم الكبير من الاختلافات المروية في كلماتها؟ فقلت له: ماذا تقصد بهذه الاختلافات؟

فقال: إن الفاتحة وحدها من سور القرآن وردت بطرق مختلفة من الضبط والألفاظ، تزيد على عشرين وجهًا، فهل تقرأ: الحمدُ لُله، أم الحمدِ لِله، أم الحمدُ لِله؟ وهل تقرأ مالك أم مَلِك، أم ملَكَ، أم ملْك؟ وهل تقرأ إيّاك أم هياك؟ وهل تقرأ نَستعين أم نِستعين؟ وهل تقرأ الصراط أم السراط أم الزراط؟ وهل تقرأ عليهِمْ أم عليهُمْ أم عليهِمُ؟ فكل هذه القراءات وردت في هذه السورة وحدها، فما بالك بغيرها من سور القرآن؟ أوليست هذه القراءات المختلفة تجعل من النص الواحد نصوصًا مختلفة، فنحن الآن لسنا أمام قرآن واحد ولكن أمام قرائين متعددة، فهل نزل القرآن بكل هذه الطرق المختلفة في القراءة؟ وهل قرأها محمد على العرب بكل هذه الطرق؟ أم أنها كانت بصيغة واحدة وبعد أن قرأها جبريل على محمد قال له اقرأها كما تعارفت عليه القبائل بلهجاتها المختلفة؟ أم أن محمدًا سمح للعرب بقراءتها بلهجاتهم وفق ما يشاؤون؟ وهنا يتحول النص الإلهي إلى نص بشري محض!

صدقني يا صاحبي، إن هذه القراءات المزعومة هي أكبر دليل على تحريف القرآن،

ولن ينفعكم حديث الأحرف السبعة في نفي صفة التحريف، ففي سورة يونس نص صريح ينفي فيه محمد أنه يستطيع أن يبدل شيئا من القرآن من تلقاء نفسه، فكيف يسمح للعرب أن تبدل فيه وتغير، ثم يكون ما بدلته وغيرته قراءات معتمدة، تضفون عليها ما تضفون على القرآن من القداسة والتبجيل؟ والعقل المتجرد يستطيع أن يقرر أن رواية نزول القرآن على سبعة أحرف تم اختلاقها بعد الاختلاف في القرآن كتسويغ لذلك الاختلاف ولمنع الصراع بين المسلمين بسببه.

وأنت تعلم أن هذه القراءات أصبحت تمثل أزمة حقيقية في زمن الخليفة الثالث عثمان بن عفان، فسعى لضبط أمرها حتى لا يتفاقم ويختفي النص القرآني تماما، فقام بكتابة نسخة معتمدة من المصحف وأخلاها من النقط، وقد أتاح له ذلك أن يقر شرعية بعض القراءات التي يحتملها رسم مصحفه - والتي أصبحت هي القراءات الصحيحة فيما بعد- ، وفي الوقت نفسه حكم على قراءات أخرى كان لها نفس الشرعية بالمنع والتحريم - وسميت فيما بعد بالقراءات الشاذة- فقام بحرق المصاحف المخالفة لمصحفه، وكان من بينها بعض مصاحف كبار الصحابة كابن مسعود، وذلك لما تضمنته من قراءات مخالفة لمصحفه الذي أصبح هو النسخة الرسمية من القرآن.

فجعلت أقلب قوله في عقلي وأردده في نفسي، فعلى كثرة ما قرأت وراجعت في هذه القضية يبقى لها بقية من القول لا تريد أن تنتهي، فاستعنت بالله في الجواب عنه، والذود عن حياض القرآن العظيم، الذي حفظه الله بحفظه وجعله آية على صدق نبيه.

فأجبته: لابد لتفنيد ما عرضته في مسألتك من تقسيم القول فيها، حتى يستوفي الرد أجزاء هذه المسألة المشكلة، التي تدور في جوهرها حول شبهة تحريف القرآن

ولقد رأيتك تبني مسألتك على ثلاثة أمور:

١- اعتبار كل اختلاف في قراءة القرآن هو من قبيل التحريف للنص الواحد الذي نزل به جبريل على رسول الله، والذي تحول بسبب هذه القراءات -في نظرك- إلى نص بشري محض.

٢- إنكار حديث الأحرف السبعة واعتباره حديثًا مختلقًا، والاستناد في إنكاره إلى قوله تعالى في سورة يونس (قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي).

٣- ادعاء وجود نسخ متعددة من القرآن متمثلة في مصاحف الصحابة التي قام عثمان بن عفان بحرقها بعد أن كتب المصاحف.

والحق أن تصوراتك عن هذه القضية مغلوطة وباطلة، فالقراءات حقيقة واقعة، رافقت النص القرآني من لدن النبي صلى الله عليه وسلم إلى يوم الناس هذا، ومهما اختلف الناس في أمرها فلن يغير اختلافهم من حقيقة وجودها وصحة أسانيدها بل وتواترها، وقد تلقتها الأمة بالقبول واعتنوا بها وبروايتها وبتلقيها بالأسانيد العالية والنازلة إلى القراء المشهورين الذين ارتضاهم المسلمون لإقراء كتابهم، وقد نص علماء الإسلام على وجوب الإيمان بهذه القراءات، وأن كل قراءة منها مع الأخرى بمنزلة الآية مع الآية.

وفي بادئ القول نقرر أن لاختلافات القراءات صورتين؛

الأولى: صوتية، وهي التي تعود إلى اختلاف لهجات العرب في بعض الظواهر اللغوية المتعلقة بنطق الألفاظ، كالفتح والإمالة والتفخيم والترقيق والهمز والتسهيل وإسكان ميم الجمع وضمها، وكل هذه الظواهر لا تؤثر على المعنى ولا تغيره، ولا تجعل من القرآن نصوصًا

متعددة أو مختلفة.

والأخرى: دلالية، وهي التي تعود إلى اختلاف الألفاظ نفسها مثل : مالك وملك، ننشرها وننشزها، بُشرا ونُشرا، أو اختلاف ضبطها مثل يَحزن ويُحزن، أو اختلاف تركيبها مثل (فتلقى آدمُ من ربه كلماتٍ)، و(فتلقى آدمَ من ربه كلماتٌ) أو حذفها وزيادتها مثل (ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد)، و(فإن الله الغني الحميد)، وهذه الصورة هي التي يثار حولها إشكال التحريف، لأن المعنى فيها قد يتغير بتغير القراءة واختلافها.

ويقتضينا الإنصاف هنا أن نحدد المقصود بالتحريف قبل الخوض في رمي القرآن بوقوعه فيه واتهامه بهذا الاتهام الخطير، والتحريف الذي نحن بصدده هو تغيير في ألفاظ النص القرآني بتدخل بشري محض لا يستند إلى رواية صحيحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو المصدر البشري الأول الذي تلقى القرآن من الله عز وجل بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام.

وليس من قبيل التحريف الذي نحن بصدده هنا ما يسمى بتحريف المعنى أو لي عنق النص أو تأويله بصرفه عن ظاهره أو تحميله ما لا يحتمل من المضامين والمعاني الباطنية أو الإشارية إلى غير ذلك، فكل هذه الصور إنما تقوم في ذهن المتلقي دون أن تتعرض للألفاظ ولا تغير شيئا في ضبطها أو تركيبها، وما يعنينا الآن هو أن نناقش وقوع التحريف في القرآن من جهة الاختلاف في القراءات القرآنية، فكان لابد من تحديد المفهوم أولا ليكون الكلام على بصيرة.

ثم نتساءل : هل اتفق لأي مسلم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم أو فيما بعده من الأزمنة أن غير في النص القرآني بغير أن يكون له سند صحيح إلى رسول الله؟

الجواب بالقطع: لا، لم يحدث في تاريخ القرآن كله أن قرأه أحد من المسلمين على وفق هواه أو اختياره، ولم يزل علماء القرآن يرددون أن القراءة سنة متبعة، يقتفي فيها اللاحق أثر السابق، ويهتدي فيه المتأخر بالمتقدم، حتى ينتهوا جميعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا الأمر ثابث بالإجماع النظري والعملي.

روى البخاري ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة " الفرقان " على غير ما أقرأها ، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أقرأنيها ، فكدت أن أعجل عليه ، ثم أمهلته حتى انصرف ثم لببته بردائه ، فجئت به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت يا رسول الله ، إني سمعت هذا يقرأ سورة " الفرقان " على غير ما أقرأتنيها ! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " أرسله اقرأ " فقرأ القراءة التي سمعته يقرأ ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : هكذا أنزلت ثم قال لي : اقرأ فقرأت فقال : هكذا أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه .

فلتنظر في هذا الحديث وأشباهه لتقف على غيرة المسلمين على كتاب ربهم، وشدة استيثاقهم من ضبط كل كلمة فيه والتحري عن مصدرها والتأكد من نسبتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى هذا درج أهل الإسلام.

وبعيدًا عن ذلك الخلاف الكبير حول حديث الأحرف السبعة وتفسير المراد منها وإسقاط معنى الحديث على القرآن، فلننح ذلك كله جانبا، ولنقرر مرة أخرى للأهمية البالغة في هذه المسألة، أن لم يحدث في تاريخ القرآن أن قرأه أحد من المسلمين على وفق هواه، فلم يزل المسلمون يتلقون القرآن جيلا بعد جيل، حرفًا حرفًا، وكلمةً كلمة، دون أن يكون لأحد منهم أدنى تدخل فيما يتلقى أو فيما يقرأ.وما أثاره بعض المستشرقين حول

شبهة (القراءة بالمعنى) لا دليل على وقوعه مطلقا، ونحن نتحدى أن يأتي أحد بخبر صادق يدل على وقوع هذا الأمر في قراءة القرآن، بل جميع النصوص التي تتعلق بموضوع القراءات القرآنية كلها تشير إلى أن القراءة سنة متبعة، لا مجال فيها لأي تدخل في بنية النص القرآني، وقد قرر ذلك الإمام الباقلاني صاحب الانتصار لنقل القرآن، فذكر "أنه لا يجوز ولا يسوغ القراءة على المعنى دون اتباع لفظ التنزيل ، وإيراده على وجهه وسببه الذي أنزل عليه وأداه الرسول صلى الله عليه وسلم".

وقال أبو عمرو الداني: "وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر، والأصح في النقل، والرواية إذا ثبتت لم يردها قياس عربية ولا فشو لغة، لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها".

أفيعقل بعد ذلك أن توصف القراءات القرآنية بأنها من قبيل التحريف للنص القرآني، أو أنها أحالته إلى نص بشري مجرد؟ إن عناية المسلمين البالغة بهذا الكتاب العظيم قد بلغت حدًا لم يبلغه أي نص آخر عرفته البشرية في تاريخها الطويل، حتى إنهم أقاموا علمًا كاملا لضبط تلاوته وتحقيق مخارج حروفه وصفاتها، فهل كانوا يعكفون على نص بشري ناله التحريف وعبثت به ألسنة الأعراب؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

ومن مظاهر عنايتهم بهذا الكتاب أنهم أثبتوا من هذه القراءات ما ورد من طرق صحيحة مستفيضة، وتجنبوا ما سوى ذلك مما لم يبلغوا فيه حد اليقين ولم يقطعوا بنسبته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسموها شاذة، ومنعوا القراءة بها، جرى على ذلك عمل أئمة المسلمين وعامتهم، وفي ذلك يقول الإمام مكي بن أبي طالب في الإبانة: "وقد جرت عادة المسلمين في جميع الأمصار بأنه لو انفرد واحد بقراءة دون أهل بلده، لم يوافقه على ذلك

أحد، بل كانوا يجتنبونها ويأمرون باجتنابها، ولا زالت هذه العادة جارية إلى زماننا هذا، ولها حوادث مدونة في كتب التاريخ" ا هـ.

أما إنكارك لحديث الأحرف السبعة بدعوى مخالفته للآية الكريمة (قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي) فهو إنكار لا قيمة له، لأنه يدل على جهل بمعنى الآية وخطأ في الاستدلال بها، فالتبديل المفهوم من الآية أبعد ما يكون عما نحن بصدده، فالمشركون حين طلبوا من الرسول الكريم أن يأتيهم بقرآن غير هذا أو يبدله لم يكونوا يقصدون بالطبع أن يأتيهم بنفس ألفاظ القرآن ولكن بلهجات مختلفة، أو باختلاف يسير في ضبط بعض الألفاظ والتراكيب، إذن لذهب الخلاف بينهم وبينه، ولكانوا أول المؤمنين به، ولكنهم أرادوا أن يأتيهم بقرآن آخر ليس فيه ما أنكروه من التوحيد والبعث والوعيد للمخالفين منهم، والمعنى كما قال الزمخشري: غاظهم ما في القرآن من ذم عبادة الأوثان والوعيد للمشركين، فقالوا ائْتِ بِقُرْآنٍ آخر ليس فيه ما يغيظنا من ذلك نتبعك أَوْ بَدِّلْهُ بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة، وتسقط ذكر الآلهة وذمّ عبادتها.

وما أبعد هذا المعنى عن القراءات، وما أبعد وصف القراءات بأنها حصلت بتبديل العرب لألفاظ القرآن وتصرفهم فيها وتغييرهم لها، فما ذلك كله إلا تخرصات باطلة لا دليل عليها سوى الرجم بالغيب وإطلاق العنان للأهواء لتفتري ما تشاء على كتاب الله.

ومن هذا القبيل أيضًا ادعاء افتراء حديث الأحرف السبعة بعد أن فشا الخلاف بين المسلمين في القرآن، ليكون مسوغًا لقبول هذا الخلاف ورأب صدع المسلمين بعد وقوعه، ولو كانت الآراء تلقى جزافًا كمثل هذا الرأي المبتدع لجاز لكل أحد أن يقول ما شاء فيما شاء، ولكن لا يقبل ادعاء أحد حتى يأتي بدليل يؤيده، والثابت لدينا أن القراءات

ظهرت وشاعت قبل انتقال الرسول الكريم إلى الرفيق الأعلى، وأنها وقعت بإذنه وتوقيفه.

فاستوقفني قائلا: إن رفضت هذا الادعاء لافتقاره إلى دليل فهل تنكر أن فريقًا من المسلمين أنكر حديث الأحرف السبعة وأسقط رواياته التي وصفتموها بالتواتر؟

فأجبته: أنت تقصد إلى إنكار الشيعة لحديث الأحرف السبعة، وليس هذا مجال مناقشة موقفهم حول قضية التواتر، لكن ما يعنينا هنا أن نرد عن القرآن شبهة التحريف التي تنسبها إليه من جهة القراءات، وإذا كان الشيعة أنكروا هذا الحديث نظريًا، فإنهم قبلوا القراءات عمليا، فهم يقرأون القرآن كما يقرؤوه أهل السنة، ولا يمنعون أحدًا من القراءة بأي من القراءات القرآنية المشهورة، وينفون التحريف عن القرآن كما ينفيه سائر المسلمين.

ننتقل الآن إلى مناقشة صنيع عثمان بن عفان رضي الله عنه في المصاحف وعلاقة ذلك بالقراءات وشبهة التحريف فيها، فنقول وبالله التوفيق: إن القراءات أقدم من تدوين المصحف، فقد توفي رسول الله ولم يكن القرآن مجموعًا في مصحف واحد، ثم جاء زمن أبي بكر الصديق فدون المصحف، وكان هذا أول جمع للقرآن الكريم، وكانت الغاية منه جمع ما تفرق من سور القرآن في مصحف واحد بعد أن كانت مدونة في الصحف واللخاف والعسب والحجارة وغير ذلك من وسائل التدوين التي كانت متاحة للعرب في ذلك الوقت، ولم تغب القراءات عن المسلمين في هذه الحقبة من زمن خلافة الصديق إلى خلافة عثمان بن عفان، فلما كانت خلافته انتشر المسلمون في أنحاء متباعدة من الأرض، وانتشر القرآن معهم، وكان لكل أهل بلد قارئ يأخذون عنه القرآن ويتعلمونه منه.

فلما كانت سنة ثلاثين من الهجرة اجتمع في غزوة أذربيجان وأرمينية أهل العراق

وأهل الشام، فاختلفوا في القراءة، كلٌ منهم يخطئ الآخر حتى وصل الأمر بينهم إلى التكفير، مما دفع الخليفة الثالث إلى نسخ المصاحف، فكان الجمع الثاني للقرآن، وقد اختلف هذا الجمع في غايته عن الجمع البكري، فلم يكن يقصد إلى مجرد تدوين القرآن في مصحف واحد، بل كان يقصد إلى تدوين القراءات الصحيحة التي استفاض نقلها واشتهرت روايتها في بلاد المسلمين، وإقرارها في مصاحف معتمدة ومدققة ومراجعة من قبل لجنة من كبار الصحابة الجامعين للقرآن، حتى تكون لها مرجعية مدونة إلى جانب النقل الشفهي، منعًا للتنازع في صحتها بين أهل البلاد الإسلامية المختلفة، فتدوين نسخ معتمدة من القرآن تحتوي هذه القراءات وتوزيعها علي تلك البلاد كان جديرًا بإسكان الفتنة، على نحو ما سكنت نفس عمر بن الخطاب حين أقر رسول الله صلى الله عليه وسلم هشام بن حكيم على قراءته.

والدليل على صحة ما نقول هو المصاحف العثمانية نفسها التي أرسل بها عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار الإسلامية، فإن هذه المصاحف لم تكن متطابقة تمام التطابق، بل وجدت بينها بعض اختلافات في إثبات بعض الكلمات أو حذفها ، وذلك تبعًا للقراءات الصحيحة المتبعة فيها، فلو كان صنيع عثمان رضي الله عنه هو مجرد كتابة نسخة معتمدة من القرآن للقضاء على ظاهرة القراءات وإخماد الفتنة التي أثيرت من جرائها ما اختلفت نسخ مصاحفه، بل إنه عندما أرسل هذه المصاحف إلى الأمصار جعل مع كلٍ منها قارئًا من الصحابة أو التابعين يقرئ الناس بما يطابق القراءة المدونة في مصحفه.

إذن فقد ظلت القراءات باقية بعد الجمع الثاني وكتابة المصاحف العثمانية، وكان دور هذه المصاحف هو إقرار حجية القراءات من خلال المصاحف المدونة، وقد أتاح نظام الكتابة العربية الذي كان سائدًا في ذلك الوقت أن يحتمل رسم المصاحف تعددية

القراءات المختلفة، وذلك لخلوه من النقط، ومن الخطأ التاريخي أن يقال إنهم جردوا المصاحف من النقط ليحتمل رسمها القراءات المختلفة، فذلك يوهم أنهم تعمدوا إسقاط النقط من رسم الحروف، والصواب أن النقط لم يكن قد عرف طريقه إلى نظام الكتابة عند العرب حتى ذلك الوقت.

وهنا سؤال يفرض نفسه عن الأسباب التي أدت إلى هذا الاختلاف الشديد بين أهل الأمصار الإسلامية في أمر القراءات، أو بالأدق: ما الذي أدى إلى اختلاف المسلمين حول القراءات في زمن عثمان حتى كادت الفتنة تموج بهم في شأنها، دون زمن أبي بكر أو عمر رضي الله عنهما؟

إن من يقرأ تاريخ الخلافة الراشدة يعلم أن خلافة الصديق لم تستمر سوى سنتين وبضعة أشهر، ويعلم أيضًا أنه كان من سياسة عمر ألا يسمح لكبار الصحابة بالتفرق في الأمصار، ولعل هذا هو السبب الرئيس الذي من أجله تأخرت فتنة القراءات إلى زمن عثمان، فقد سمح لكبار الصحابة بالخروج من أرض الحرمين، فنزلوا الشام والعراق ومصر وسائر الأقطار الإسلامية، وقد كانوا محل اقتداء ومتابعة من عوام المسلمين، فنشأ عن ذلك اختلاف في قراءة أهل هذه البلاد تبعًا لقراءة شيخهم من الصحابة أو التابعين، ولما قدر الله لهم أن يجتمعوا في مكان واحد لاحظوا ما بينهم من اختلاف في القراءة، وهم في جملتهم عوام مقلدون، فوقع بينهم التنازع والشقاق، إلى أن سكنت الفتنة بصنيع عثمان رضي الله عنه.

وأختم حديثي حول هذه المسألة ببيان سبب تحريق عثمان رضي الله عنه لمصاحف بعض الصحابة، وهل كانت هذه المصاحف تتضمن قراءات صحيحة وأسقطها من اعتباره؟

وهنا يجب أن نفرق بين نوعين من المصاحف عرفهما المسلمون في صدر الإسلام، الأول: مصاحف موثقة كتبت بعناية جمع من الصحابة ولم ينفرد بكتابتها واحد بعينه، ولم يكن لهذا النوع وجود قبل جمع عثمان سوى مصحف الصديق، وهو أول مصحف في الإسلام، بل هو الكتاب الجدير بتسمية المصحف. والثاني: مصاحف شخصية كتبها بعض الصحابة لأنفسهم، وقد ضمنها بعضهم شروحًا أو تفاسير أو أذكارًا ليست من نص القرآن، ويجدر بالذكر أن تسمية المصحف كانت تطلق في ذلك الوقت على مطلق الصحف المجموعة، أيًا ما كان محتواها، ولم تختص بمعناها المعهود لنا الآن إلا فيما بعد.

فهل قام عثمان بحرق المصحف الذي جمع في زمن أبي بكر الصديق ، وهو ما يصدق عليه بحق مفهوم المصحف بالمعنى المتعارف عليه؟

كلا، بل إنه اعتمد عليه اعتمادًا أساسيًا في عملية نسخ المصاحف التي تمت في خلافته، وإنما قام بتحريق المصاحف الشخصية التي لا يصدق عليها مفهوم المصحف المتعارف عليه الآن، بل ربما كان بعضها مشتملا على القرآن وغيره، كشرح كلمة أو تفسير معنى، وربما أسقط الكاتب اللفظ المفسر من الآية وأثبت التفسير، اعتمادًا على حفظه للآية.

وقد تم حرق المصاحف المشار إليها بمحضر من كبار الصحابة، ولم يعترض منهم أحد على صنيع عثمان رضي الله عنه، وقد اشتهرت مقولة الإمام علي كرم الله وجهه: " أيها الناس، إياكم والغلو في عثمان. تقولون حرق المصاحف، والله ما حرقها إلا عن ملأ من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، ولو وليت مثل ما ولي، لفعلت مثل الذي فعل "

حتى ابن مسعود نفسه، فإنه لم ينكر حرق مصحفه، وإنما تحفظ في بداية الأمر على

اللجنة التي شكلها عثمان لجمع القرآن ونسخه، إذ كان يرى نفسه أحق من زيد بن ثابت، وهذا ظاهر من قوله في الرواية عنه: يا معشر المسلمين، أعزل عن نسخ المصاحف ويتولاه رجل والله لقد أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر؟ اهـ. ولم يرو عن ابن مسعود ولا عن غيره من الصحابة أن المصاحف العثمانية أهملت شيئا من القرآن، بل ارتضتها الأمة وتلقتها بالقبول.

٤

التفاضل بين القراءات

وقبل أن أكمل قاطعني بحدة: لقد أسهبت وأطلت القول في هذه المسألة، فدعني أسلم لك جدلا بما قلت، وأجب عن المسألة الرابعة؟ قلت وما هي؟ قال: أنت تزعم أن هذه القراءات كلها صحيحة، وليست تحريفًا للقرآن، فكيف تفضلون بعضها على بعض من جهة البلاغة، وتخطئون بعضها وتصوبون الآخر من جهة النحو واللغة؟

فأجبته: أما من جهة البلاغة فالتفضيل بين القراءات هو مسلك شاع بين كثير ممن تعرض لتوجيهها من العلماء والمفسرين، وهو مسلك –على شيوعه- غير مستقيم، لا سيما إذا كان التفضيل بين قراءتين متواترتين، فإنه يوهم أن بينهما تعارضًا أو تدافعًا في المعنى، وليس شيء من اختلاف القراءات إلا وهو من قبيل التنوع وليس التعارض، ففي تعدد القراءات ثراء في المعنى واستيعاب لمقامات الكلام المختلفة وتكثير للفوائد المستنبطة من النص الواحد.

وقد أثر عن بعض أهل العلم –وهو الإمام النحاس- قوله: والسلامة من هذا عند أهل الدين إذا صحت القراءاتان عن الجماعة ألا يقال إحداهما أجود من الأخرى، لأنهما جميعا عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيأثم من قال ذلك.

فقاطعني بقوله: إن إنكار مسلك المفضلين لن يسقط الشبهة عن القراءات، فتفضيلهم لبعض القراءات على بعض يدل على أنهم رأوا فيها تفاوتًا في البلاغة، وهذا التفاوت مما يتعارض مع دعوى الإعجاز التي تنسبونها للقرآن، فكيف يكون نصًا معجزًا لديكم وأنتم

ترون فيه تفاوتًا؟

فقلت: إذا كان التفاوت بين البلاغة والعي، أو بين البيان وقصور العبارة، فهذا مما لا سبيل لأحد أن ينسب القرآن إليه، فما أبعد البلاغة القرآنية عن مثل هذا التفاوت الذي ينزلها من الطبقة العليا للبلاغة، والذروة السامية من الفصاحة والبيان، وقد نزل القرآن على أرباب الكلام وأمراء البلاغة واستثار حميتهم -وكانوا أهل حمية وأنفة- ليأتوا بمثله في بلاغته وحسن عبارته وبديع نظمه، فعجزوا هم ومن بعدهم من كل متفنن في أودية القول، متمرس في فنون البيان، ولو تتبعت أقوال العلماء الذين سلكوا مسلك التفضيل بين القراءات في البلاغة، فلن تقع منها على أدنى إشارة إلى تدني القراءة المفضولة عن الطبقة العليا من البلاغة وهي التي يتحقق بها وصف الإعجاز.

وغاية ما يمكن أن تجده في أقوالهم أن هذه القراءة أبلغ من الأخرى من وجه دون وجه، كما فضل بعضهم قراءة (ملك) لكونها أعم في الدلالة، وفضل بعضهم الآخر قراءة (مالك) لكونها أدل على قوة التصرف وشموليته، فلكل من الفريقين وجهة من النظر تثرى المعنى ولا تعارض بينهما من جهته.

ومن دقائق البلاغة أن التركيب الواحد قد يُنظر إليه من جهات مختلفة، وقد يكون بعضها أبلغ من بعض، ألا ترى إلى قوله تعالى (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين)، فهو نص واحد لا اختلاف في قراءاته، ولكن نظر البليغ إليه متعدد الجهات، فتارة يقرؤه من جهة الإخبار عن اسم الإشارة (ذلك) بالاسم المبدوء بأل الجنسية (الكتاب)، وتارة يقرؤه من جهة الإخبار عنه بالجملة الصغرى (لا ريب فيه)، وقد ينظر إلى شبه الجملة (فيه) على أنه خبر (لا)، وقد ينظر إليه على أنه خبر (هدى)، وهذا نص واحد لم تختلف القراءة فيه.

فكيف يُنكر بعد ذلك أن يختلف نظر البليغ إلى قراءتين مختلفتين؟ أم كيف يلزم عن ذلك ادعاء وقوع التفاوت في بلاغة القرآن؟

فظهر بذلك أن اختلاف النظر لا يلزم عنه نسبة التفاوت الذي يسقط إحدى القراءتين من ذروة البلاغة، أو ينفي عن القرآن وصف الإعجاز.

أما من جهة النحو واللغة، فقد فرح بعض أهل اللغة والتفسير بما عندهم من العلم، وظنوا أنهم أكبر من النصوص اللغوية الفصيحة التي جعلوها هم أنفسهم محل الاحتجاج والاتباع، فمضوا يعللونها بآرائهم ويفسرونها بعللهم، حتى بلغ الأمر ببعضهم إلى أنهم ربما خطأوا الأعراب الذين أخذوا اللغة عنهم، واستنبطوا القواعد من كلامهم، وهذا من فتنة العلم والاغترار به.

ألم يعمد عبد الله بن أبي إسحاق الحضرميّ، وهو من قدماء النحاة، إلى تخطئة الفرزدق -وهو شاعر حجة في اللغة- وتلحينه في بعض شعره، حتى هجاه الفرزدق ببيت سائر، تعمد فيه أن يخالف ما تعارف عليه النحاة في قياسهم، يقول فيه

فلو كان عبد الله مولىً هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا

وإذا كانوا قد تجاوزوا في أمر التصويب والتخطئة إلى أن بلغوا به كلام العرب الفصحاء نفسه، فمن اليسير في جنبه أن يخطئوا بعض القراءات إذا خالفت قواعدهم وقياسهم، فقد بنوا قواعدهم وقياسهم على هدى من كلام العرب وباستقراء له، فهو عندهم الأصل المتبع والمثال المحتذى.

ولو أنصف هؤلاء المغالون لأذعنوا للقراءة التي تخالف قياسهم ولاحتجوا بها كما

يحتجون بكلام العرب، ولله در الفخر الرازي حين قال: "أنا شديد العجب من هؤلاء النحويين، إذا وجد أحدهم بيتًا من الشعر ولو كان قائله مجهولا يجعله دليلا على صحة القراءة وفرح به، ولو جعل ورود القراءة دليلا على صحته كان أولى"، وذلك أن نقل القراءة وسندها أوثق وأضبط من نقل كلام العرب وسنده، وهذا أمر ظاهر لا يجحده إلا مكابر.

وأنا زعيم بأن النحاة لم يتركوا رواية واحدة خرجت عن الأصول الشائعة لديهم إلا والتمسوا لها من التأويل ما يرفعون به الإشكال، ويوجهون به ما وصفهم بعضهم بالخطأ توجيهًا يسقط الشبهة عنه، ولا سيما أن القراء لم يجعلوا مقياس قبول القراءة هو الأفصح والأقيس، بل صرحوا بأن أئمة القراء لا تعتمد في شيء من حروف القرآن على الأفشى والأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل، والرواية إذا ثبتت عندهم لا يردها قياس عربية ولا فشو لغة.

وهكذا ترى أن أمر تخطئة بعض اللغويين والنحاة لبعض القراءات المشهورة لا يضيرها في شيء، ولا يطعن في صحتها ووثاقة نقلها، وقد أنكر صنيع هؤلاء اللغويين كثيرون من بني جلدتهم ومن غيرهم من علماء الأمة الأثبات، فانتصروا لحجية القراءات وصححوا ما أشكل فيها من جهة اللغة.

٥

التكرار

ثم قلت له: قد مضى بنا وقت طويل وأنت تسرد عليك مسائلك، دون أن تضمنها شيئًا مما افتريته على بلاغة القرآن ونظمه، فهلا دللتني على ما فيه من العي وسوء النظم؟!

قال: إليك المسألة الخامسة ، وفيها دليل العي والقصور فيما تدعون له الإعجاز، فإن البليغ إذا أتى في كلامه بعبارة فأحسن موقعها وأحكم نظمها لا يحسن منه أن يعيدها ويكررها، وفي القرآن شيء كثير من هذا التكرار، الذي هو قصور في البلاغة وعي من القول، وفي الفاتحة منه تكرار (الرحمن الرحيم)، التي جاءت في البسملة، ثم تكررت بعدها بآية واحدة.

قلت: إن مطلق التكرار ليس عيباً في البلاغة، لأن البلاغة لا تعرف القوالب الجامدة أو التعبيرات الجاهزة، وإنما لكل مقام مقال كما نص على ذلك بلغاء العرب القدماء، وإذا اقتضى المقام تكرارًا فالبلاغة في التكرار، وإذا اقتضى اختصارًا فالبلاغة في الاختصار، فلا تصادر على المطلوب بالمغالطة، ولتنظر في سياق السورة ليظهر لك وجه الحكمة في هذا التكرار البليغ.

لقد استهلت السورة بالبسملة، التي تتضمن العبارة المكررة (الرحمن الرحيم)، ولابد أن تتعلق البسملة بمتعلق محذوف، يقدره المفسرون بـ(أبدأ) أو (أقرأ) أو (أستعين) أو ما شابه ذلك، ويتخذ هذان الاسمان الشريفان في البسملة موقعهما من المعنى المستفاد من المتعلق المحذوف، فالاستعانة أو الابتداء أو الشروع في القراءة أمر تعبدي يقوم به المسلم،

ولما شرع الله له أن يستهله باسم الله قرنه بوصف الرحمة المتمثل في الاسمين الشريفين، ليرفع الحرج عن المسلم في الاستعانة في كل عمل باسم الله، مهما كانت حاله مع الله، فإن كان على خير وطاعة وصلاح فهو يستعين بالله ويتشفع إليه برحمته ليمده بحوله ومعونته، وإن كان على معصية أو تقصير فهو لا يتحرج من طلب العون من الله حتى وهو على حال المعصية، لأنه تعالى رحمن رحيم، لا يطرد أحدًا عن بابه، ولا يمنع العاصين من عطائه.

وأما (الرحمن الرحيم) في الفاتحة فهي تأتي عقب قوله تعالى (الحمد لله رب العالمين)، ولها في هذا الموضع عدة وجوه من المعاني والمناسبات؛ منها: الترغيب في لزوم حمده والمداومة عليه لكونه تعالى (الرحمن الرحيم)، ومنها: الإشارة إلى أن ربوبيته تعالى للعالمين ليست لحاجةٍ به إليهم، فهو سبحانه الغني عن جميع خلقه، وإنما ربوبيته لهم من قبيل رحمته العامة وإحسانه الشامل. ومنها: نفي ما قد يتوهم من لفظ (الرب) من معاني الجبروت والقهر، فأراد الله تعالى أن يذكرهم برحمته وإحسانه وأن يحببهم إليه بأن ربوبيته لهم ربوبية رحمة وإحسان، لا ربوبية قهر وسلطان.

فأورد عليّ قائلا: إذا رأيت أن معنى (الرحمن الرحيم) قد اختلف في الموضعين، فما تقول في معنى (الرحمن) و(الرحيم)، أوليسا مشتقين من الرحمة كما زعمت؟ إذن فهما مثال آخر على التكرار المعيب الذي لا فائدة منه.

فقلت: صحيح أن الرحمن والرحيم كلاهما يدل على صفة الرحمة ومشتقان منها، ولكن بينهما فروقة دقيقة، جعلت من البلاغة أن يقترنا معًا، دون أن يكون اقترانهما تكرارًا مجردًا عن الفائدة، فإننا إذا تأملنا صيغتهما الصرفية نجدهما مختلفتين، فالأول على وزن (فعلان)، والآخر على وزن (فعيل)، ولكلٍ من الوزنين دلالة تختلف عن الأخرى.

أما فعلان التي جاء على وزنها الرحمن، فتشير في كلام العرب إلى المبالغة في الصفة، نحو رجل غضبان أي ممتلئ غضبا، وندمان وحيران وسكران ولهفان لمن مُلئ بذلك، وهذه المبالغة ترتبط بالأفعال التي يتجدد حدوثها ويستمر وقوعها، وعلى ذلك تكون دلالة الرحمن صفة فعل لله تعالى تشير إلى عظمة هذه الرحمة وتجدد وقوعها واستمرار حدوثها.

وأما فعيل التي جاء على وزنها رحيم، فتشير في كلام العرب إلى الثبات على الصفة والدوام عليها، نحو كريم وظريف، وعلى ذلك تكون دلالة الرحيم صفة ذات لله تعالى، تشير إلى ثبوت صفة الرحمة له ودوامها فيه.

وقد سلك كثير من المفسرين مسلك التفضيل بين الاسمين، فزعم بعضهم أن الرحمن أبلغ من الرحيم، أو العكس، والحق أن لكلٍ من الاسمين الشريفين دلالة تتكامل مع الآخر، فلا وجه للتفضيل بينهما، وإنما يكون التساؤل عن وجه اجتماعهما وارتباطهما في البسملة وفي غيرها من الآيات، وقد ظهر من خلال تأمل دلالتهما بمعونة الأصل اللغوي أن في اجتماعها فائدة بليغة، ففي ذلك إشارة إلى ثبوت الرحمة ودوامها في اسم الله (الرحيم)، وتجددها واستمرارها والمبالغة في وقوعها في اسم الله (الرحمن)، فإذا وُصف الله تعالى بالرحمن استفيد منه لغة أنه المفيض للنعم العظيمة، ولكن قد يتوهم من الاقتصار عليه أن الرحمة ليست من الصفات الواجبة له دائما.

وإذا وصف بعد ذلك بالرحيم علم أن لله صفة ثابتة دائمة هى الرحمة التي يكون أثرها الإحسان الدائم والإنعام الثابت، وبذلك يكون ذكر الرحيم بعد الرحمن كالبرهان على أنه يفيض الرحمة على عباده دائما لثبوت تلك الصفة له على طريق الدوام والاستمرار.

٦

التفكك

فظهر بذلك أن بلاغة القرآن لا تعرف التكرار المجرد عن الفائدة، بل كل تكرار فيه له بلاغته العالية، وحتى ما يظن فيه من الألفاظ المترادفة في المعنى فإن كل لفظ منها يختص بوجه من الدلالة يختلف به عن الآخر، وهي مسألتك الخامسة، فما السادسة؟

قال: أما السادسة: فإنكم تزعمون أن كل عبارة في هذا الكتاب قد اتخذت موقعها المناسب، وهي بذلك في ذروة البلاغة والفصاحة، ولو تأملتم في ترتيب الآيات لوجدتم اضطرابا كثيرًا وتفككا ظاهراً، نخذ مثالا على ذلك من آيات الفاتحة التي تبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم تنتقل فجأة من الغيبة إلى التكلم بعبارة (إياك نعبد وإياك نستعين)، ثم يعقب ذلك دعاء بالهداية إلى الصراط المستقيم، فتجد الكلام يتتابع بدون رابط يجمعه ولا موضوع يدور حوله.

فأجبته: هذا ظنك الباطل وتلك رؤيتك القاصرة، وقد نهض بالرد على هذه الشبهة علم كامل من علوم القرآن الكريم، وهو علم المناسبات، الذي أظهر تناسب الآيات في السورة الواحدة، وبيّن ما بينها من علاقات وارتباط، وأكثر لطائف القرآن - كما قال الإمام الرازي- مودعة في الترتيبات والروابط.

وللفاتحة من القرآن موقع عظيم ومحل رفيع، فهي السورة الوحيدة التي اختصت بوجوب تلاوتها كل يوم سبع عشرة مرة أو تزيد، وهي أم الكتاب، وواسطة عقده، وهي التي جمعت في آياتها السبع مقاصد القرآن وكلياته، ففيها إجمال ما فصله، وخلاصة ما بينه،

وإذا كانت لها تلك المنزلة العظيمة فكيف تفتقر آياتها إلى المناسبة، وتوصف بالتفكك والاضطراب؟ لا جرم أنه اتهام باطل، يكذبه التدبر في ترتيب آياتها وانتظام معانيها.

ومن يتدبر في معاني هذه السورة يجد أنها قد أجملت معاني القرآن الكلية ومقاصده العامة، فالقرآن جاء بعقيدة وعبادة ومنهج حياة، وأصل العقيدة توحيد الله (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم) وإثبات النبوة (صراط الذين أنعمت عليهم) وإثبات المعاد (مالك يوم الدين)، وأساس العبادة إخلاص التوجه إلى الله (إياك نعبد وإياك نستعين)، وأساس منهج الحياة الاستقامة (اهدنا الصراط المستقيم)، والانحراف عن هذا المنهج يكون بالإعراض عنه أو تحريفه وتبديله بعد العلم به (غير المغضوب عليهم ولا الضالين)

وحسبنا أن نقف على ما سطره أحد شيوخ علم المناسبات -وهو الإمام البقاعي- لنتعرف على ما في هذه السورة من حسن الترتيب وانتظام المعاني وتناسبها، فإليك خلاصة ما سطره ذلك الإمام الجليل:

يقول: لما كانت نسبة البسملة من الفاتحة نسبة الفاتحة من القرآن صدرت بها الفاتحة كما صدر القرآن بالفاتحة، لأنها لما أفادت نسبة الأمور كلها إليه سبحانه وحده أفادت أنه الإله وحده وذلك هو إجمال لتفصيل الفاتحة كما أن الفاتحة إجمال تفصيل القرآن. ولما كانت البسملة نوعا من الحمد ناسب كل المناسبة تعقيبها باسم الحمد الكلي الجامع لجميع أفراده فكأنه قيل: احمدوه لأنه المستحق لجميع المحامد، وخصوا هذا النوع من الحمد في افتتاح أموركم. ولما أثبت بقوله: {الحمد لله} أنه المستحق لجميع المحامد الحائز لجميع الكمالات أشار إلى أنه يستحقه أيضاً من حيث كونه رباً مالكاً منعماً فقال: {رب العالمين}، ولما كانت مرتبة الربوبية لا تستجمع الصلاح إلا بالرحمة اتبع ذلك بصفتي {الرحمن الرحيم} ترغيباً في لزوم حمده، ولما كان الرب المنعوت بالرحمة قد لا يكون مالكاً وكانت الربوبية لا

تتم إلا بالمِلك المفيد للعزة والقهر اتبع ذلك بقوله: {مالِك يوم الدين} ترهيباً من سطوات مجده. فلما استجمع الأمر استحقاقاً وترغيباً وترهيباً كان من شأن كل ذي لب الإقبال إليه فقال عادلاً عن أسلوب الغيبة إلى الخطاب {إياك نعبد} إرشاداً لهم إلى ذلك، وأعقبه بقوله {وإياك نستعين} إشارة إلى أن عبادته لا تتهيأ إلا بمعونته. وفي الآية ندب إلى اعتقاد العجز واستشعار الافتقار، فاقتضى ذلك توجيه الرغبات إليه بالسؤال فقال: {اهدنا الصراط المستقيم}ثم أكد سبحانه وتعالى الإخبار بأن ذلك لن يكون إلا بإنعامه فقال: {صراط الذين أنعمت عليهم} ولما كان سبحانه عام النعمة لكل موجود كان من المعلوم أن محط السؤال بعض أهل النعمة وهم أهل الخصوصية. فميزهم ببيان أضدادهم تحذيراً منهم، فعرف أنهم قسمان: قسم أريد للشقاوة فعاند في إخلاله بالعمل فاستوجب الغضب، وقسم لم يرد للسعادة فضلّ من جهة إخلاله بالعلم فصار إلى العطب فقال مخوفاً بعد الترجية ليكمل الإيمان بالرجاء والخوف معرفاً بأن النعمة عامة والمراد منها ما يخص أهل الكرامة: {غير المغضوب عليهم ولا الضالين} . أ.هـ

فظهر بذلك انتظام معاني السورة وتسلسل عرضها وتماسك آياتها، وأنها على وجازتها مشتملة على أصول معاني القرآن وغاياته، ومن أجل ذلك افتتح بها المصحف، لتكون خير مقدمة له.

٧

الكراهية والعداء

ثم توجهت إليه قائلا: قد أجبتك عما أشكلت به على بلاغة القرآن، وما زعمته نقصًا في فصاحته واختلالا في ترتيبه، فماذا بقي لديك من مسائلك السبع؟

قال: أما السابعة: فإنكم تفسرون المغضوب عليهم باليهود، والضالين بالنصارى، فكيف يمكن للمسلمين أن يتعايشوا بسلام ووفاق مع اليهود والنصارى إذا رددوا في صلواتهم اليومية سورة الفاتحة بما فيها من الكراهية والعداء؟ إن المجتمع العربي والإسلامي يحترق بنار الطائفية البغيضة. ألا يحق لنا أن نتساءل من أين أتت هذه الطائفية والكراهية؟ لقد أتت مما تكرسه الفاتحة والقرآن كله من الكراهية والإرهاب ورفض الآخر، وقد آن لكم أيها المسلمون أن تعيدوا النظر في كثير من نصوصكم المقدسة.

فقلت: بل قد آن لك أن تنصرف عني غير مأسوف عليك، فما رأيت منك إلا الجدل بالباطل وإلقاء الاتهامات الكاذبة والشبهات المغرضة على كلام الله، وأنت مع ذلك تزعم أنك متطلب للدليل مذعن إلى الحق، فإن كنت محقًا فيما تزعم فاستمع للجواب عساك تجد فيه بغيتك.

أما عن تفسير المغضوب عليهم باليهود، والضالين بالنصارى فهو تفسير صحيح من جهتي الرواية والدراية، فهو الوجه في التفسير المأثور لهذه الآية، لا سيما وقد صحت به الرواية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما أنه إجماع أهل الرأي من المفسرين بدءًا من الطبري وحتى ابن عاشور، وقد قال ابن أبي حاتم في تفسيره: "ولا أعلم بين المفسرين في هذا

الحرف اختلافا"، فلا بدع أن قلنا إنه تفسير صحيح.

أما من جهة الرواية فقد روي هذا التفسير عن النبي صلى الله عليه وسلم من طريق عدة؛ منها طريق عدي بن حاتم بإسناد صححه أهل العلم ورجاله ثقات، ولفظه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضلال"، وروي أيضًا بلفظ "المغضوب عليهم اليهود، والضالين النصارى"، ومن طريق عبد الله بن شقيق العقيلي بإسناد حسّنه الحافظ بن حجر، ولفظه: عن عبد الله بن شقيق، عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المغضوب عليهم، قال اليهود، قلت: الضالين؟ قال: النصارى.

كما قال به من كثير الصحابة والتابعين، ومنهم أنس بن مالك وسعيد بن جبير وعبد الله بن مسعود، ومجاهد، وزيد بن أسلم، والسدي، والربيع بن أنس البكري.

أما من جهة الدراية فقد وافق هذا التفسير سياق القرآن الكريم في غير موضع من آياته، ففي خطاب اليهود جاء قوله تعالى (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله، من لعنه الله وغضب عليه)، وقوله (وباءوا بغضب من الله)، وقوله عن المنافقين الذين تولوهم (ألم تر إلى الذين تولوا قومًا غضب الله عليهم)، وفي خطاب النصارى جاء قوله تعالى (قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرًا وضلوا عن سواء السبيل) .

غير أن هذا التفسير إنما هو تفسير بالمصداق لا بالمفهوم، فمفهوم المغضوب عليهم والضالين أوسع من أن يحصر في اليهود والنصارى، وفي ذلك يقول الطاهر ابن عاشور : " والمراد من المغضوب عليهم والضالين جنسا فرق الكفر، فالمغضوب عليهم جنس للفرق

التي تعمدت ذلك واستخفت بالديانة عن عمد أو عن تأويل بعيد جدا، والضالون جنس للفرق التي أخطأت الدين عن سوء فهم وقلة إصغاء، وكلا الفريقين مذموم، لأننا مأمورون باتباع سبيل الحق وصرف الجهد إلى إصابته، واليهود من الفرق الأول والنصارى من الفريق الثاني، وما ورد في الأثر مما ظاهره تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى فهو إشارة إلى أن في الآية تعريضًا بهذين الفريقين اللذين حق عليهما هذا الوصفان لأن كلا منهما صار علما فيما أريد التعريض به فيه".

فلا ينحصر وصف المغضوب عليهم في اليهود، ولا وصف الضالين في النصاري، بل يتسع مفهومهما ليشمل كل من تلبس بهذا الوصف ممن أعرض عن الحق واستكبر عنه بعد معرفته، أو ممن جهل الحق ولم يلق له بالا، واكتفى بتقليد رؤسائه ومتبوعيه.

هذه خلاصة تفسير الآية، وهي مما أجمعت عليه كلمة المفسرين قديمًا وحديثًا، وهذه هي عقيدة المسلمين الثابتة التي يقوم عليها دينهم الحق، الدين الذي ارتضاه الله لخلقه، ولم يقبل منهم سواه.

ولكن هل يلزم عن هذا التفسير ما يدعيه البعض من أن بعض النصوص الدينية سواء في القرآن أم السنة، تبث الكراهية وتحض على العنف وتشجع على الإرهاب وتدعو إلى سفك الدماء وإزهاق الأرواح البريئة؟

إن هذه الاتهامات التي تكال للإسلام والمسلمين هي أبعد ما تكون عن الحقيقة، وما هي إلا حملات تشويه يقصد من ورائها تشكيك المسلمين في دينهم ومحاولة فتنتهم فيه، وللرد على هذه الاتهامات بعلم وبصيرة لابد من التفرقة بين أمرين في عقيدة المسلمين، والتنبه إلى مغالطة خطيرة يسعى أصحاب الشبهات إلى الترويج لها ابتغاء الفتنة وابتغاء

الإلحاد في آيات الله.

أما الأمر الأول فهو الموقف المعرفي الذي يستقر في عقيدة المسلم إزاء من يخالفه في الديانة من اليهود والنصارى وغيرهم من البشر، ويتلخص هذا الموقف المعرفي بوضوح وبساطة في أن كل من لا يؤمن بالله تعالى إيمان توحيد وتنزيه، ولا يؤمن بنبوة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ويتبعه في رسالته التي بلغها عن الله، فهو (كافر)، مهما تسمى بأسماء الأديان المختلفة، يهوديًا كان أم نصرانيًا أم بوذيًا أم على غير دين من الأصل، وهذا الموقف المعرفي لا يحتمل النقاش أو التردد، فالحق عند الله واحد، ولا يمكن أن يعتقد إنسان أنه على صواب وغيره أيضًا على صواب مع أنهما على النقيض من بعضهما، فهذا لا يقوله عاقل، ولذلك فالمسلم يعتقد بخطأ كل من خالف عقيدته الإسلامية الواضحة التي تترجم عنها كلمة التوحيد (لا إله إلا الله، محمد رسول الله)، ومصطلح (الكفر) هنا هو المعبر عن خطأ المخالف لهذه العقيدة، فمن أخل بأصل التوحيد أو أنكر نبوة محمد فقد أخطأ في عقيدته، ويسمى خطؤه ذلك كفراً.

وليس هذا الموقف المعرفي مقصورًا على المسلمين فحسب، بل كل صاحب عقيدة مؤمن بها مقتنع بصحتها لا بد أن يحكم على من يخالفه بأنه على خطأ، ثم إن له أن يسميه بما شاء من التسميات، كأن يسميه مهرطقًا، أو صابئًا، أو ملحدًا، أو زنديقًا، أو مغضوبًا عليه، أو ضالاً، أو كافرًا، فكل هذه التسميات تعبر عن موقف معرفي يتبناه صاحب العقيدة إزاء من يخالفه فيها، ولا تحمل هذه التسميات في أصل مفهومها سبًا أو قذفًا أو ازدراءً للإنسانية أو للأديان، ألا ترى إلى القرآن الكريم كيف سمى المسلم نفسه كافرًا باعتبار مخالفته لعقيدة المشركين، فقال تعالى (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى).

وأما الأمر الثاني فهو الموقف العملي الذي يتبناه المسلمون ويلتزمون به ويعتقدونه إزاء (الكافر)، ومن الخطأ الجسيم والوهم البعيد والشطط الجامح أن يظن ظان أن كل كافر في نظر المسلمين حلال الدم لا حرمة له ولا حق، فإذا كان الإسلام هو الدين الذي حث على الرحمة حتى بالحيوان الأبكم، فكيف يقال عنه إنه يهدر دم كل من خالف عقيدته ويبث الكراهية بين الناس وينشر روح الإرهاب والطائفية في نفوس أتباعه؟

إن النفس البشرية لها حرمتها في الإسلام، مهما كانت عقيدة أصحابها، وما يروج له البعض من أن كل كافر في الإسلام حلال الدم هو مغالطة كبرى لا ينبغي أن يتحمل الإسلام وزرها، بل يتحملها أصحابها، فهم الذين جنوا على الإسلام بها، وهم الذين يحاولون خلط الأوراق وتشويه الحقائق .

إن موقف المسلمين العملي من (الكافر) هو موقف التعامل الإنساني القائم على أساس التعايش السلمي، فللكافر حالات متعددة في المجتمع المسلم، فقد يكون ذميًا أو معاهدًا أو مستأمنًا، وفي كل هذه الحالات فإنه معصوم الدم والمال والعرض، وله حرمته التي يقوم الحاكم المسلم على رعايتها واحترامها، ولا تلازم إطلاقًا بين الحكم عليه بالكفر وبين الإساءة إليه أو الانتقاص من حقه أو التعرض له بالأذى، أقول: لا تلازم بين هذين الأمرين إلا في وهم أصحاب الشبهات.

فإن شئت دليلا على هذا الموقف العملي فاقرأ قوله تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين)، ولو كان كل كافر حلال الدم -كما تروج المغالطة الخطيرة- لم يكن لهذه الآية ونظائرها معنى، ومع ذلك يأبى الملحدون في آيات الله إلا أن يلصقوا بها الاتهامات الباطلة، زاعمين أن القرآن يدعو إلى الكراهية ورفض الآخر والعنف والطائفية والإرهاب.

فنخلص من ذلك إلى أن موقف المسلمين المعرفي بالحكم على مخالفيهم في العقيدة بالكفر لا يتعارض مع موقفهم العملي مع هؤلاء المخالفين، فإن من عقيدة المسلمين أيضًا أنه لا إكراه في الدين، وأن الهداية والضلال من أمر الله سبحانه، وأن الاختلاف سنة كونية باقية إلى قيام الساعة.

فلما أن فرغت من قولي، مجيباً عن المسألة السابعة من مسائله وشبهاته، نظرت حولي فلم أجد له أثرًا، وانتبهت فإذا بي وقد انفلتت من بين يدي أيام رمضان ولياليه، دون أن أختم تلاوة القرآن الكريم، وإذا بي لم أتجاوز الفاتحة بعد، فسألت الله أن يأجرني على نيتي، وألا يجعلني من المحرومين، فرب سورة يتدبرها المسلم ويعيش معها بقلبه وعقله، أعظم أجرًا من ختمات كثيرة، لا تجاوز الحناجر ولا الآذان.

* * *

وبعد، فقد قضيت الشهر الكريم أدفع عن فاتحة الكتاب شبهات المرتابين، وأنا على يقين من أن باب الشبهة لن يوصد أبدًا، ولكنها تذكرة عسى أن تنفع المؤمنين، فيستيقن المترددون منهم، ويزداد الذين آمنوا إيمانا، فاللهم ثبت قلوبنا على دينك، واهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

آمين

الفهرس